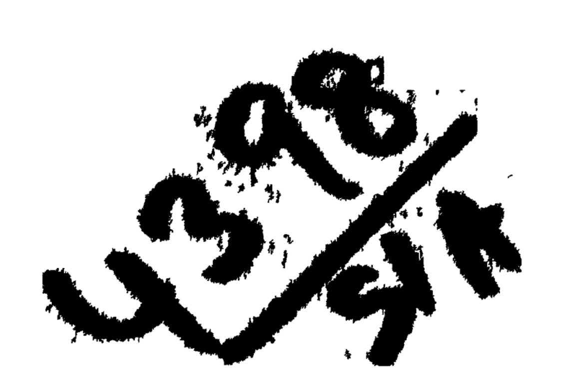


تهذيب الاخلاق

تأليف الشيخ الفاضل الحكيم أبي زكريا

يحيي بن عدي

المتوفى في سنة ٣٦٣ ه‍. على الاشهر

قدس الله روحه ونور ضريحه

الطبعة الثانية

سنة ١٦٣٠ ش — ١٩١٣ م

مع مقدمة عن تاريخ المؤلف لناشر الكتاب

جرجس فيلوثاوس عوض

المطبعة المصرية الاهلية بشق الثعبان نمرة ٤ بشارع كلوت



المقدمة

منذ اثنتين وأربعين سنة أي في سنة ١٥٨٨ ش (١٨٧٢م) أيام انتظمت مطبعة الدار البطريركية التي سعى في احضارها الطيب الذكر والأثر الانبا كيرلس الرابع الذي لا أكنيه الا «بأبي الاصلاح القبطي» ودعيت « بالمطبعة القبطية الاهلية» ـ قد اعتنى مديروها بطابع كتاب «تهذيب الاخلاق» للعلامة الشهير «يحيى بن عدى» النصراني الدين الارثوذكسي اليعقوبي المذهب السرياني الجنس . ويلوح لي انه أول الكتب التي طبعت فيها لانه قد ختم بختم المطبعة الذي عمل في سنة طبعه وكتب في آخره : « تمّ طبع كتاب تهذيب الاخلاق للعلامة الشهير يحيى بن عدي السرياني الارثوذكسي بالمطبعة القبطية الاهلية سنة ١٥٨٨ للشهداء الاطهار » اهـ . —

وما ذلك الا لأن هـذا الكتاب النفيس قد حوى من النصائح لتهذيب الاخلاق ما يفيد الطلاب الراغبين في الفضائل حتى يتربوا على مكارم الاخلاق ليسيروا فى الطريق القويمة .

ونظراً لنفاد طبعته الاولى وندورة وجوده رأيت اعادة طبعه أولى من اهماله وضياعه كغيره من الكتب. ولاسيما وان هذا الكتاب النفيس الذي قضى بين عالم الادب عشرة قرون لم يزل مفيداً لكل متدين بأي دين من الاديان نافعاً لكل طالب مستفيد .

أما المؤلف للكتاب فهو رجل فاضل سرياني الاصل نصراني يعقوبي اشتهر أمره وذاع ذكره وعدّ من كبار الحكماء توفي في يوم السبت ٢١ ذي الحجة سنة ٣٦٣ - ١٥ توت سنة ٦٩١ -- ١٢ سبتمبر سنة ٩٧٤ على حسب قول القفطي الاخير المحقق كما ترى بعد

وقد وجدت في كتاب خطي — ذكر فيه بعض رسائله وأجوبته — ما كتبه عنه صاحب كتاب تاريخ «مختصر الاول» العلامة غريغوريوس أبي الفرج بن أهرون العابد الملطيّ المعروف بابن العبري قال :

« وفي هذا الزمان اشتهر يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا التكريتي المنطقيّ نزيل بغداد . اليه انتهت رئاسة أهل المنطق في زمانه . قرأ على أبي نصر الفارابي، وكان نصرانيا يعقوبيّ النحلة وكان ملازما للنسخ بيده كتب كثيرا من الكتب وكان يكتب خط قاعدا بين في اليوم والليلة مائة ورقة وأكثر . وله تصانيف وتفاسير ونقول عدة . ومات ثالث عشر آب سنة الف ومائتين وخمس وثمانين للاسكندر ودفن في بيعة القطيعة ببغداد وكان عمره احدى وثمانين سنة شمسية »[1] اه .

وقال أيضا عنه عند ذكر ارسطو وكتبه : « وكتاب مابعد الطبيعة نقله من السرياني الى العربي يحيى بن عدي » اه[2]

وقال الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي المتوفى في سنة ٦٤٦ هـ . في كتاب « اخبار العلماء بأخبار الحكماء »:

---

(١) تاريخ مختصر الدول ٢٩٦ و٢٩٧ (٢) تاريخ مختصر الدول ٩٣

(يحيى بن عدي) بن حميد بن زكريا المنطقي أبو زكريا نزيل بغداد اليه انتهت رئاسة أهل المنطق في زمانه قرأ على أبي بشر متى ابن يونس وعلى أبي نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي وعلى جماعة في وقتهم وكان نصرانياً يعقوبي النحلة وكان ملازماً للنسخ بيده كتب الكثير من كل فن وكان يكتب خطاً قاعداً بيناً . وعاتبه بعض معارفه على ملازمة النسخ والقعود . فقال له : من أي شيء تعجب . أمن بصري وقعودي ، لقد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتهما إلى ملوك الأطراف. وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى ولعهدي بنفسي وأنا أكتب في اليوم والليلة مائة ورقة أو أقل.

« وله من التصانيف في التفاسير والنقول :

١ « كتاب نقض حجج القائلين بأن الأفعال خلق الله واكتساب للعبد.
٢ « وكتاب تفسير طوبيقا لأرسطوطاليس.
٣ « كتاب مقالة في البحوث الخمسة عن الرؤس الثمانية .
٤ « كتاب في تبيين الفضل بين صناعتي المنطق الفلسفي والنحو العربي
٥ « كتاب في فضل صناعة المنطق
٦ « كتاب هداية من تاه الى سبيل النجاة
٧ « كتاب في تبيين أن للعدد والاضافة ذاتين موجودتين في الأعداد
٨ « مقالة في استخراج العدد المضمر
٩ « مقالة في ثلاث بحوث غير المتناهي
١٠ « تعليق آخر في ذلك

١١ « مقالة في ان كل متصل انما ينقسم الى منفصل
١٢ « كتاب جواب يحيى بن عدي عن فصل من كتاب أبي الحسن النحوي فيم ظنه أن العدد غير متناه
١٣ « مقالة في الكلام في ان الأفعال خلق الله واكتساب العباد.
١٤ « كتاب أجوبة بشر اليهودي عن مسائله
١٥ « كتاب شرح مقالة الاسكندر في الفرق بين الجنس والمادة
١٦ « مقالة في أن حرارة النار ليست جوهرا للنار
١٧ « مقالة في غير المتناهي
١٨ « مقالة في الرد على من قال بأن الأجسام [illegible]
١٩ « تفسير فصل في المقالة الثامنة من السماع الطبيعي لأرسطوطاليس
٢٠ « مقالة في انه ليس شيء موجود غير متناه لا عددا ولا عظما .
٢١ « مقالة في تزييف قول القائلين بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ
٢٢ « مقالة في تبيين ضلالة من يعتقد أن علم الباري بالأمور الممكنة قبل وجودها .
٢٣ « تعليق آخر في هذا المعنى
٢٤ « مقالة في أن الكم ليس فيه تضاد
٢٥ « مقالة في أن القطر غير مشارك للضلع
٢٦ « عدة مسائل في كتاب ايساغوجي
٢٧ « مقالة في أن الشخص اسم مشترك

٢٨ « مقالة في الكل والأجزاء

٢٩ « تفسير الألف الصغرى من كتب أرسطوطاليس في بعد الطبيعة

٣٠ « مقالة في الحاجة الى معرفة ماهيات الجنس والفصل والنوع والخاصة والعرض في معرفة البرهان

٣١ « مقاله في الموجودات

٣٢ « مقالة في أن كل متصل ينقسم الى أشياء ينقسم دائما بغير نهاية

٣٣ « كتاب اثبات طبيعة الممكن وأقوى الحجج على ذلك والتنبيه على فسادها

٣٤ « مقالة التوحيد

٣٥ « مقالة في أن المقولات عشرة لا أقل ولا أكثر

٣٦ « مقالة في أن العرض ليس هو جنساً للتسع المقولات العرضية

٣٧ « مقالة في تبيين وجود الأمور العامية

٣٨ « قول فيه الجزء الذي لا يتجزأ

٣٩ « تعاليق عدة في معان كثيرة

٤٠ « قول فيه تفسير أشياء ذكرها عند ذكره فضل صناعة المنطق

٤١ « تعاليق عدة عنه عن أبي بشر متى في أمور جرت بينهما في المنطق

٤٢ « مقالة في قسمة الأجناس الستة التي لم يقسمها أرسطوطاليس الى أجناسها المتوسطة وأنواعها وأشخاصها

٤٣ « مقالة في البحوث العلمية الأربعة عن أصناف الموجود الثلاثة : الالهي والطبيعي والمنطقي

٤٤ « مقالة في نهج السبيل الى تحليل القياسات

٤٥ « كتاب التنبيه في ابطال الممكن

٤٦ « جواب الدارمي وأبي الحسن المتكلم عن المسئلة في ابطال الممكن

٤٧ « مقالة بينه وبين ابراهيم بن عدي الكاتب ومناقضته في أن الجسم جوهر وعرض .

٤٨ « مقالة في جواب ابراهيم بن عدي الكاتب

٤٩ « رسالة كتبها لأبي بكر الآدمي العطار فيما تحقق من اعتقاد الحكماء بعد النظر والتحقيق

« مات الشيخ ابو زكريا يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا الفيلسوف يوم الخميس لتسع بقين من ذي الحجة سنة اربع وستين وثلثماية للهجرة وهو الثالث عشر من آب سنة الف ومائتين وخمس وثمانين للاسكندر ودفن في بيعة القطيعة ببغداد وكان عمره احدى وثمانين سنة شمسية. ورأيت في بعض التعاليق بخط من يعني بهذا الشأن وفاته كانت في اليوم المقدم ذكره من سنة ثلاث وستين وثلثماية اه.[١]

وقد اشتهر هذا الرجل وذاع ذكره في الآفاق وتنوقلت كتبه واستشهد بها العلماء في الشرق حتى شهد له الخصوم بالبراعة . وله

(١) اخبار الحكماء ٢٣٦ — ٢٣٨

حكايات مأثورة مشهورة مما يروون عنه ما كـ.. ؤ مقدمة ا.. .

قال الكاتب :

« اخبرني بعض اخواني اطال الله بقاءهم ابو ... ان ...

الحسن علي بن عيسى بن الجراح استحضر ابو مسلم ... بن ...

الاصبهاني رحمه الله ليوافقه على ما كان يتولاه من الاعمال ... ،

بينهما خطاب اختلفا فيما يجب فيه الحكم واتفقا على ... من

من يوثق ببصيرته باحكام الديوان من كتاب الحضرة ... ...

ابو الحسن رجلاً من وجوه كتاب النصارى . ... ابو مسلم ...

به لانه لا يحسن الحساب . فقال الوزير منكرا عليه : تقول ...

انه لا يحسن الحساب ؟ قال : نعم . لان الواحد عنده ثلاثة و ...

واحد . فاستضحكه بذلك .. الى ان قال : « قال يحيى بن عدي بن

حميد بن زكريا .. الخ » .

وقال في مقدمة كتاب آخر :

« هذا كتاب الشيخ الفاضل ابي زكريا يحيى بن عدي بن ...

من علماء النصارى المسيحيين . لان تلك البلاد : البصرة و... ...

يسمون نصاراها بمثل هذه الاسماء .

« وقوله الشيخ ابو زكريا انما هو تعظيم في حق الرجل كونه من

العلماء . واما تسمية يحيى وعدي ويونس وعلي وعمار وعيسى ومثل

ذلك فليس فيه شناعة لان عادة أهالي تلك البلاد يسمون بمثل

هذه الاسماء وهم نصارى مسيحيون علماء افاضل .

« وهؤلاء من جملة اسرار بان اليعاقبة لان مدينة تكريت وهي كرسي مفريان المشرق وهو مطران كبير له ان يقسم اساقفة من تحت يد البطريرك واذا حضر عند بطريرك انطاكية فيقوم له وهو يقبل ايدي بعض رجاله ويجلس عن يمينه . ولما خربت تكريت نقل هذا الكرسي الى مدينة الموصل بقرب نينوى وهو كرسي المفريان حالا كما ذكرنا . ومدينة تكريت هي قريبة الى بغداد . وبغداد هي قريبة الى البصرة . وفي زماننا هذا [illegible] تكريت وبغداد والبصرة [illegible] وهي بلاد [illegible] . واما مدينة الموصل فموجود بها نصارى يعاقبة كثير ونواحيها [illegible] كثيرة موجودة بها من طائفة السريان » ٢ .

وقال عنه العلامة [illegible] الشيخ [illegible] من [illegible] القرن [illegible] ابو اسحق بن [illegible] المعروف بابن العسال في كتابه مجموع اصول الدين ومسموع محصول اليقين :

« الشيخ الاجل [illegible] الفاضل العلامة حجة دين النصرانية برهان الفرقة اليعقوبية يحيى بن عدي » ٣ .

وقد نقل عنه كثير ولاسيما الرد على ابي عيسى الوراق . وقد اختصر الشيخ الصفي أبو الفضائل ابن العسال كثيراً من أقواله . ونقل غير أولاد العسال عنه من كتبه شيئاً كثيرا في التثليث والتوحيد لانه حجة يرجع اليه قد استعمل عقله في فحص الامور الدقيقة للتوصل

الى معرفة الحقيقة فلم يرتكن على الاوهام ولم يقنع بالقايل من العلوم

وبالجملة فان ذكر هذا الرجل العظيم دائم لخدمته للعلم ونبوغه فيه ومثابرته على ما يرفع شأن الانسانية بتهذيب الاخلاق .

ولما كان كتابه هذا من أجل الكتب وأسماها . رأيت ان ازفه الى النشء لان مؤلفه لم يكتبه الى فرقة مخصوصة بل الى الكل مثبتاً فيه ان الاخلاق الحميدة تجعل الانسان ممتازاً عمن لم يتخلق بها .

٣ بابه سنة ١٦٣٠ جرجس فيلوثاؤس عوض



قال : اعلم ان الانسان من بين سائر الحيوان ذو فكر وتمييز وهو أبداً يحب من الامور أفضلها . ومن المراتب أشرفها . ومن المقتنيات أنفسها . اذا لم يعدل عن التمييز في اختياره . ولم يغلبه هواه في اتباع أغراضه . وهذا أولى ما اختاره الانسان لنفسه . ولم يقف دون بلوغ غايته . ولم يرضَ بالمقصر عن نهاية تمامه وكماله . ولاجل تمام الانسان وكماله وجب أن يكون مرتاضاً (١) بمكارم الاخلاق ومحاسنها ، منزها عن مساويها وعن مقابحها . آخذاً في جميع أحواله بقوانين الفضائل . عادلاً عن كل طرق الرذائل . واذا كان ذلك كذلك كان واجباً على الانسان ان يجعل قصده اكتساب كل منيمة سليمة من المعائب . ويصرف همته الى اقتناء كل خلق كريم خالص من الشوائب ، وان يبذل جهده في اجتناب كل خصلة مكروهة رديئة . ويستفرغ وسعه في اطراح كل خلة مذمومة دنيئة . حتى يحوز الكمال بتهذيب أخلاقه . ويكتسي حلل الجمال بدماثة شمائله . ويباهي بحق أهل السؤدد والفخر . ويلحق بالذين هم من درجات النباهة والمجد . الا

---

(١) مهذباً - مثقفاً

إن المبتدى بطلب هذه المرتبة . والراغب في ادراك هذه المنزلة . ربما خفيت عليه الخصال المستحسنة التي يمنيه تجربها أعني اتخاذها . ولم تتميز له من المستقبحة التي غرضه توقيها . فمن أجل ذلك وجب علينا ان نقول في الاخلاق وعللها قولاً : نبين فيه ما الخلق وما علته . وكم أنواعه وأقسامه . وما المرضي منه المغبوط صاحبه والمتخلق به . وما المستثنى منه أعني المستقبح الممقوت فاعله والمتوسم به . ليسترشد بذلك من كانت همته تسمو الى مباراة أهل الفضل . ومن له أبية تنبو عن مساواة أهل الدناءة والنقص . موضحين أيضاً طريق الارتياض بالمحمود من أنواعه والتدرب به . وتنكب المذموم أي الاجتناب منه وتجنبه . حتى يصير للمرتاض به ديدنا وعادة وسجية وطبعاً . ليهتدي به من نشأ عن الاخلاق السيئة وألفها . وجرى على العادات الرديئة وأنس بها فيتركها . ونصف أيضاً الانسان التام المهذب الاخلاق . المحيط بجميع المناقب الخلقية وطريقته التي يصل بها الى التمام ويحفظ عليه الكمال . ليشتاق الى صورته من تشوق الى الرتبة العليا . ويحن الى اجتذاب سيرته من استشرف للغاية القصوى . وقد يتنبه أيضاً بما نذكره من كانت له عيوب قد اشتهرت عليه ؛ وهو مع ذلك يظن انه في غاية الكمال. فان من هذه حالته اذا تكرر عليه ذكر الاخلاق المكروهة تيقظ لما فيه من ذلك وأنف منه . واجتهد في تركه والتنزه عنه . وكذلك اذا تصفح وصف الاخلاق المحمودة من كان جامعاً لاكثرها عادماً لبعضها ، قدم الى التخلق بذلك البعض الذي هو عادم له . وتاقت نفسه الى الاحاطة بجميعها . وقد ينتفع بما نذكره أيضا

من كان غاية في الكمال والتمام . فان المهذب الاخلاق الكامل الآلات الجامع للمحاسن اذا مر بسمعه ذكر الاخلاق الجميلة والمناقب النفيسة ورأى ان تلك هي عادته وسجاياه . كانت له بذلك لذة عجيبة وفرحة مبهجة . كما ان الممدوح يسر اذا ذكر المادح محاسنه ونشر ثناءها . وأيضا فانه اذا وجد أخلاقه مدونة في الكتب موصوفة بالحسن كان ذلك داعياً له الى الاستمرار على سيرته والاصرار على طريقته . والله المسئول ان يوفقنا للصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(فصل)

« في ذكر الاخلاق »

ولنبتدئ الآن بذكر الأخلاق فنقول : ان الخلق هو حال للنفس به يفعل الانسان أفعاله بلا روية ولا اختيار . والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعا وفي بعض الناس لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد . وقد يوجد في كثير من الناس بغير رياضة ولا تعلم كالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الاخلاق المحمودة . وكثير من الناس من يوجد فيهم ذلك فمنهم من يصير اليه بالرياضة ومنهم من يبقى على عادته ويجري على مسيرته . فما الاخلاق المذمومة فانها في كثير من الناس كالبخل والجبن والشرور . فان هذه العادات غالبة على أكثر الناس مالكة لهم متسلطة عليهم بل

قيـل لايوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه ويسلم من جميع العيوب ، ولـكنهم يتفاضلون في ذلك كما يتفاضلون في الاخلاق المحمودة ❊ وقد يختلف الناس ويتفاضلون في الاخلاق المحمودة الاان المجبولين على الاخلاق الجميلة قليلون جـداً والمبغضين لها كثيرون . فأما المجبولون على الاخلاق السيئة فأكثر الناس . فان الغالب على طبيعة الانسان الشرّ . وذلك ان الانسان إذا استرسل مع طبعه ولم يستعمل الفكر ولا التمييز ولا الحياء ولا التحفظ في جميع أعماله . كان الغالب عليه أخلاق البهائم. وذلك لأن الانسان انما يتميز عن البهائم بالفكر والتمييز فقط . فاذا لم يستعملهما كان مشاركا للبهائم في عاداتها والشهوات مستولية عليه والحياء غائب عنهوالغضبمستقر به والسكينة غـير حاضرة عنده والحرص والاحتشاد ديدنه والشره لا يفارقه . واذاكان الناس مطبوعين على الاخلاق الرديئة منقادين للشهوات الدنيئة ، وقع الافتقار الى الشرائع والسنن والسياسات المحمودة وعظم الانتفاع بالملوك الحسني السيرة ليردعوا الظالمعن ظلمه، ويمنعوا الغاصبعنغصبه، ويعاقبوا الفاجرعلى فجوره؛ ويقمعوا الجائر حتى يعود الى الاعتـدال في جميع أموره ؛

أما الاخلاق المكروهة في طباع الناس فنهم من يتظاهر بها وينقاد اليها وهم أشرار الناس؛ ومنهم من يتنبه بجودة الفكر وقوة التمييز على قبحها فيأنف منها ويتضع لاجتنابها . وذلك يكون عن طبع كريم ونفس

شريفة. ومنهم من لا يتنبه لذلك الا أنه اذا نبه عليه أحس بقبحه فربما حمل نفسه على تركه . ومنهم من اذا تنبه الى ما فيه من النقائص أو نبه عليها ورام العدول عنها تعذر عليه ذلك ولم يطاوعه طبعه ولو كان مؤثراً للعدول عنها مجتهداً في ذلك . وهذه الطائفة تحتاج ان ترشد الى طريق التدرب والتعلم بالعادات المحمودة . حتى تصير اليها على التدريج. ومن الناس من اذا تنبه على الاخلاق الرديئة أو نبه عليها . فلا يحن الى تجنبها ولا تسمح نفسه بمفارقتها . بل يؤآثر الاصرار عليها مع علمه برداءتها وقبحها . وهذه الطائفة ليس الى تهذيبها طريق الا بالقهر والتخويف والعقوبة انلم يروعها التخويف والترهيب

فأما الاخلاق المحمودة فانها وان كانت في بعض الناس غريزية فليست في جميعهم والباقون قد يمكن ان يصيروا اليها بالتدرب والرياضة ويرتقوا اليها بالاعتياد والتآلف . وقد يوجد في بعض الناس من لا يقبل طبعه العادات الحسنة ولا الاخلاق الجميلة . وذلك يكون لرداءة جوهره وخبث عنصره وهذه الطائفة من جملة الاشرار الذين لا يرجى صلاحهم . وكثير من الناس من يقبل كثيراً من الاخلاق المحمودة ويأنف طبعه عن بعضها . فلا يعد هذا شريراً بل تكون رتبته في الخير والتهذيب بحسب محاسنه .

(فصل)

« في العلة الموجبة لاختلاف الاخلاق »

فأما العلة الموجبة لاختلاف الاخلاق في النفس . وللنفس ثلاث قوى ، وتسمى أيضاً نفوساً . وهي : النفس الشهوانية والنفس الغضبية والنفس الناطقة . وجميع الاخلاق تصدر عن هذه القوى . فمنها مايختص باحداهن ومنها مايشترك فيها قوتان ومنها مايشترك فيها القوى الثلاث . ومن هذه القوى ما يكون للانسان وغيره من الحيوان . ومنها مايختص به الانسان فقط .

فأما النفس الشهوانية فهي للانسان ولسائر الحيوان وهي التي بها تكون جميع اللذات والشهوات الجسمية كالقرم الى المآكل والمشارب والمباضعة. وهذه النفس قوية جداً اذا لم يقهرها الانسان ويؤدبها ملكته واستولت عليه. فاذا غلبته عسر تهذيبها وصعب قمعها وتذليلها . واذا تمكنت هذه النفس من الانسان وملكته وانقاد لها . كان بالبهائم أشبه منه بالناس ، لان أغراضه ومطلوباته وهمته تصير أبداً مصروفة الى الشهوات واللذات فقط ، وهذه هي عادات البهائم . ومن تكون هذه الصفة صفته . يقل حياؤه ويكثر خرقه . ويستوحش من أهل الفضل . ويميل أبداً الى الخلوات . وينقبض من المجالس الحفلة . ويبغض أهل العلم ويشنأ أهل الورع والنسك . ويود أصحاب الفجور . وتستحب الفواحش . ويكثر

من ذكرها ويتلذذ باستماعها ويسر بمعاشرة السخفاء ويغلب عليه الهزل وكثرة اللهو. وقد يصير من هذه حالته الى الفجور وارتكاب الفواحش والتعرض للمحظورات. وربما دعته محبة اللذات الى اكتساب الاموال من أقبح وجوهها. وحملته نفسه على الغصب والتلصص والخيانة وأخذ ما ليس له به حق. وذلك لأن اللذات لا تتم الا بالاموال والاعراض. فمحب اللذة اذا تعذرت عليه الاموال من وجوهها حصرته شهوته على اكتسابها من غير وجوهها. ومن تنتهي به شهواته الى هذا الحد فهو أسوأ الناس حالا وهو من الاشرار الذين يخاف خبثهم ويستوحش منهم ويستروح الى البعد عنهم. وحينئذ يصير واجباً على أولي السياسات تقويمهم وتأديبهم وابعادهم ونفيهم حتى لا يختلطوا بالناس. فان في اختلاط من هذه صفته بالناس مضرة لهم وخاصة لاحداثهم. فان الحدث سريع الانطباع ونفسه مجبولة على الميل الى الشهوات. فاذا شاهد غيره مرتكبا لها مستحسنا الانهماك فيها، مال هو أيضا الى الاقتداء به والى مساعدته. — فأما من ملك نفسه الشهوانية وقهرها كان ضابطا لنفسه عفيفا في شهواته محتشما في أفعاله متوقياً من المحظورات محمود الطريقة في جميع ما يتعلق باللذات.

فأما العلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في شهواتهم ولذاتهم وعفة بعضهم وفجور بعضهم، فهي اختلاف أحوال النفس الشهوانية. فانها اذا كانت مهذبة مؤدبة كان صاحبها عفيفاً ضابطاً لنفسه. واذا كانت

مهملة مالكة لصاحبها كان صاحبها فاجراً شريرا . واذا كانت متوسطة الحال كانت رتبة صاحبها في العفة كرتبته في الأدب . فمن أجل هذا وجب ان يقهر الانسان نفسه الشهوانية ويهذبها حتى تصير منقادةً له ويكون هو مالكها فيستعملها بالتأدّب ويكفها عما لا حاجة به اليه من الشهوات الرديئة واللذات الفاحشة .

فأما النفس الغضبية فيشترك فيها الانسان أيضاً وسائر الحيوان . وهي التي يكون بها الغضب والحدّة والجراءة ومحبة الغلبة . وهذه النفس أقوى من النفس الشهوانية وأضر بصاحبها اذا ملكته وانقاد اليها . فان الانسان اذا انقاد للنفس الغضبية كثر غضبه وظهر خرقه واستد حقده وعدم حلمه ووقاره وقويت جراءته ويسرع عند الغضب الى الانتقام والايقاع بمغضبه والتوثب بخصومة عليه فيسرف في العقوبة ويزداد في التشفي ويكثر من السبّ ويفحش فيه . فاذا استمرت هذه العادات بالانسان كان بالسباع أشبه منه بالناس . وربما حملت قوماً على حمل السلاح عند اخوانهم وأوليائهم وعبيدهم وخدمهم عند الغضب من يسير الامور . وربما اذا غضب من تكون هذه حاله ولم يقدر على الانتقام بالقتل والجراح ، فيعود بالضرب والسبّ والألم على نفسه . فمنهم من يلطم وجهه وينتف لحيته . ومنهم من يعضّ يده ويسبّ نفسه ويدك عرضه وهلم جراً . وأيضاً فان من تملكه النفس الغضبية – كما ذكرنا – يكون محباً للغلبة متوثباً على من أذاه ، مقدماً على من ناواه ، طالباً للترأس

من غير وجهه . فاذا لم تتمكن من مرغوبه هذا . قصد التوصل اليه بالحيل الخبيثة . فيستعمل كل ما يمكنه من الشر . وهذه الاعمال تورط صاحبها وتوقعه في المهاوي والمهالك . فان من وثب على الناس وثبوا عليه . ومن ناصبهم ناصبوه . ومن اقدم عليهم اقدموا عليه . ومن تمرد عليهم قصدوه بالشر . واذا سفه الانسان على خصمه . وكان الخصم أسفه منه قوبل ذلك بأكثر منه . وقد يغلب على من هذه حاله الحسد والشماتة والجور . وقد تحمل هؤلاء محبة الغلبة وطلب الرئاسة على اكتساب الاموال من غير وجوهها الحلال وأخذها بالغصب و الغيلة والظلم . وربما سطوا على محبة الغلبة من يناوئهم . وقد يفعلون ذلك من غير روية ولا تبصر . فيؤول الامر بهم الى البوار والاستئصال . فاما من سكن نفسه الغضبية وأدبها وقمعها كان حليماً وقوراً عادلاً حميد الطريقة .

أما الخلافات الموجبة لاختلاف عادات الناس في غضبهم وخرقهم وحلم بعضهم وسفاهة بعضهم . فهي اختلاف أحوال النفس الغضبية . فاذا كانت متذللة مقهورة ، كان صاحبها حليماً وقوراً . واذا كانت مهملة مستولية على صاحبها كان غضوباً سفيهاً خلوعاً نسوفاً . و اذا كانت متوسطة الحال ، كانت رتبته في الحلم كرتبة نفسه الغضبية في التأدب . فمن أجل ذلك وجب ان يروض الانسان نفسه الغضبية حتى تنقاد له فيملكها ويستعملها في الظروف التي يجب استعمالها فيها . ولهذه النفس أيضاً فضائل محمودة . وذلك كالانفة من الامور الدنية ومحبة الرياسة الحقيقية

وطلب المراتب العالية . وهذه الاخلاق المحمودة هي من أفعال النفس الغضبية . فاذا ملك الانسان هذه النفس بالتأديب والتهذيب واستعملها في الامور الجميلة وكفها عن الاعمال المكروهة ، كان حسن الخلق محمود الطريقة .

وأما النفس الناطقة . فهي التي بها يتميز الانسان من بين سائر الحيوان ، وبها يكون الفكر والذكر والتمييز والفهم ، وهي التي يكون بها أيضاً شرف الانسان وعظمة همته ، فيعجب بنفسه وبها يستحسن المحاسن ويستقبح القبائح . وبواسطها يمكن الانسان ان يهذب قوتيه الباقيتين ، أعني بهما الشهوانية والغضبية ، ويضبطهما ويكفهما ، وبها يتفكر في عواقب الامور فيبادر باستدراكها من أوائلها . — ولهذه القوة فضائل ورذائل .

أما فضائلها — فاكتساب العلوم والآداب وكف صاحبها عن الرذائل والفواحش وقهر النفسين الاخريين وتدبيرهما وسياسة صاحبها في معاشه ومكسبه وفي مروءته وتجمله وحث صاحبها على فعل الخير والتودد والرأفة وسلامة النية والحلم والحياء والنسك والعفة وطلب الرئاسة من الوجوه الجميلة . —

وأما رذائلها — فالخبث والحيلة والخديعة والملق والمكر والحسد والتشرر والرياء .

وهذه النفس هي لجميع الناس . إلا ان منهم من تغلب عليه فضائلها فيستحسنها ويستعملها ، ومنهم من تغلب عليه رذائلها فيألفها ويستمر

عليها ، ومنهم من يجتمع به بعض الفضائل وبعض الرذائل . وهذه العادات قد تكون في كثير من الناس سجية وطبعا لا تكلفا . — فأما المطبوع على العادات الجميلة منها ، فتكون لقوة نفسه الناطقة وشرف عنصره الطبيعي . — وأما المطبوع على العادات الرديئة المكروهة ، فلضعف نفسه الناطقة وسوء جوهره . — وأما الذي تجتمع فيه فضائل ورذائل ، فهو الذي تكون نفسه الناطقة متوسطة الحال . — وقد يكتسب أكثر الناس هذه العادات وتهذيب الاخلاق جميلها وقبيحها معا ، وذلك يكون بحسب منشأ الانسان وأخلاق من يحيط به ويباشره ويقرب منه بحسب رؤساء وقته ومن يشار اليه بالنباهة ويغبط منهم على رتبته . فان الحدث والناشىء يكتسب الاخلاق جميلة أو قبيحة ممن يكثر مجالسته ومخالطته ومن أبويه خصوصا وأهله وعشيرته . فاذا كان هؤلاء سيئي الاخلاق مذمومي الطريقة ، كان الحدث والناشىء بينهم سيء الاخلاق مكروه العادات . واذا رأى الحدث أيضا أهل الرئاسة ومن فوقه وغبطهم على مراتبهم آثر التشبه بهم والتخلق بأخلاقهم ، فإن كانوا مهذبي الاخلاق حسني السيرة ، كان المتشبه بهم حسن الاخلاق مرضي الطريقة . وان كانوا أشرارا جهالا ، كان الغابط لهم المستحسن طريقتهم شريرا جاهلا . وهذه الحالة هي حالة أخلاق أكثر الناس . فان الجهل والشر والخبث والشره والحسد عليهم غالبة والناس بالطبع يقتدي بعضهم ببعض ويحتذي التابع أبدا سيرة المتبوع . واذا كان الغالب على الناس الشر والجهل ، اقتدى بذلك أولادهم واحداثهم واتباعهم .

أما العلة الموجبة لاختلاف أخلاق الناس في سياستهم وفضائلهم وغلبة الخير والشر عليهم ، فهي اختلاف قوة النفس الناطقة فيهم . فاذا كانت خيرة فاضلة قاهرة للنفسين الباقيتين ، كان صاحبها خيرا عادلاً حسن السيرة . واذا كانت شريرة خبيثة مهملة للنفسين الباقيتين ، كان صاحبها شريرا خبيثاً جاهلاً . فمن أجل ذلك وجب أن يعمل الانسان فكره ويميز أخلاقه ويختار منها ما كان مستحسنا جميلاً . وينفي منها ما كان مستنكراً قبيحا . ويحمل نفسه على التشبه بالاخيار ، ويتجنب كل التجنب عادات الاشرار . فانه اذا فعل ذلك ذلك صار بالانسانية متحققا . وللرئاسة الذاتية مستحقا .

فأما أنواع الاخلاق وأقسامها وما المستحسن منها المستحب اعتياده المعدود فضائل وما المستقبح منها المكروه المعدود نقائص ومعائب . فهو الآتي بيانه ايضاحا وتفصيلاً .

(فصل)

« في الاخلاق الحسنة المعدودة فضائل »

أما التي تعدّ فضائل : — فان منها العفة — وهي ضبط النفس عن الشهوات وقصرها على الاكتفاء بما يقيم أود الجسد ويحفظ صحته فقط واجتناب السرف والتقتير في جميع اللذات وقصد الاعتدال ،

وان يكون مايقتصر عليه من الشهوات على الوجه المستحب المتفق على الارتضاء به، وفي أوقات الحاجة التي لاغناء عنها. وعلى القدر الذي لا يحتاج الى اكثر منه ولايحرس النفس والقوة أقل منه . وهذه الحالة هي غاية العفة .

(ومنها أيضاً القناعة) — وهي الاقتصار على ماسنح من العيش والرضى بما تسهل من المعاش وترك الحرص في اكتساب الاموال وطلب المراتب العالية مع الرغبة في جميع ذلك وايثاره والميل اليه وقهر النفس عن ذلك والقنع باليسير منه . وهذا الخلق مستحسن من أواسط الناس وأصاغرهم . فأما الملوك والعظماء . فليس ذلك مستحسنا منهم ولاتعد القناعة من فضائلهم .

(ومنها التصون) — وهو التحفظ من التبذل . فمن التصون التحفظ من الهزل القبيح ومخالطة أهله وحضور مجالسه وضبط اللسان عن الفحش وذكر الخنا والمزح والسخف، وخاصة في المحافل ومجالس المحتشمين، إذ لا أبهة لمن يسرف في المزح ويفحش فيه. — ومن التصون أيضاً ، الانقباض عن أدنياء الناس وأصاغرهم ومصادقتهم ومجالستهم، والتحرز من العيشة الزرية واكتساب الاموال من الوجوه الخسيسة، والترفع عن طلب الحاجات من لئام الناس وسفلتهم والتواضع لمن لاقدر له. والاقلال من البروز أعني الطواف من غير حاجة . والتبذل بالجلوس في الاسواق وقوارع الطرق من غير اضطرار ، حيث ان

الاكثار من ذلك لايخلو من العيوب . فان أعظم الناس قدراً — كما قيل — من ظهر اسمه وخفي جسمه.

(ومنها الحلم) — وهو ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة على ذلك . وهذه الحال محمودة مالم تؤدّ الى ثلم جاه أو فساد سياسة . وهي بالملوك والرؤساء أحسن لانهم أقدر على الانتقام من مغضبيهم . ولا يعدّ فضيلة حلم الصغير على الكبير وان كان قادراً على مقابلته في الحال ، فانه وان مسك عنه ، فانما يعدُ ذلك خوفاً لاحلماً .

(ومنها الوقار) — وهو الامساك عن فضول الكلام والعبث وكثرة الاشارة والحركة فيما يستغنى عن التحرك فيه . وقلة الغضب والاصغاء عند الاستفهام والتوقف عند الجواب . والتحفظ عند السرعة والمبادرة في جميع الامور . ومن قبيل الوقار أيضاً الحياء وهو غضّ الطرف والانقباض من الكلام حشمة للمستحيى منه . وهذه العادة محمودة مالم تكن صادرة عن عيٍّ أو عجز .

(ومنها الودّ) — وهو المحبة المعتدلة من غير اتباع الشهوة . والودّ مستحسن من الانسان اذا كان لأهل الفضل والنبل وذوي الوقار والابهة والمتميزين من الناس . فأما التودد الى أراذل الناس وأصاغرهم والاحداث والنساء وأهل الخلاعة وماتابعهم فمكروه جداً . وحسن الود ماتسجته على منوال مناسب للفضائل . وهو أوثق الود وأثبته . فاما ما كان ابتداؤه اجتماعاً على هزل أو طلب لذة أو ماشابه ذلك ، فليس بمحمود ولا باقٍ ولا ثابت .

(ومنها الرحمة) — وهي خلق مركب من الودّ والجزع. والرحمة لا تكون الا لمن يظهر منه لراحمه خلة مكروهة : إما نقيصة في نفسه وإما محنة عارضة له. فالرحمة هي محبة المرحوم مع جزع من الحالة التي من أجلها رحم. وهذه الحالة مستحسنة ما لم تخرج بصاحبها عن العدل ولم تنته به الى الجور والى فساد السياسة. وليست بمحمودة رحمة القاتل عند القود والجاني عند القصاص.

(ومنها الوفاء) — وهو الصبر على ما يبذله الانسان من نفسه ويرهن به لسانه والخروج مما يضمنه ولو كان مجحفا به. [illegible] وفيا من لم يلحقه بوفائه أذية ولو قلت. وكلما أضرّ به [illegible] ما حكم به على نفسه كان أبلغ في الوفاء. وهذا الخلق محمود [illegible] جميع الناس. فان من عرف بالوفاء كان مقبولا [illegible] جميع ما يقوله. ومن كان مقبولا كان عظيم [illegible] الملوك بهذا الخلق [illegible] الوفاء [illegible] واعوانهم.

(ومنها اداء الأمانة) — وهو تعفف [illegible] الانسان فيه من مال غيره وما [illegible] عليه من الأعراض و[illegible] مع القدرة عليه ورد ما يستودع الى مودعه

(ومنها كتمان السر) — وهذا الخلق مركب من [illegible]

الامانة . فان اظهار السرّ من فضول الكلام وليس بوقور من تكلم بالفضول . والفضوليّ ناقص الشرف . فكما ان من استودع مالاً فأخرجه الى غير مودعه قد حقر الامانة . كذلك من استودع سرا فأخرجه الى غير صاحبه فقد حقر الامانة أيضاً . وكتمان السر محمود من جميع الناس ، وخاصة من يصحب السلطان وأولياء الامور . فان اذاعته اسرارهم قبيح في نفسه يؤدي الى ضرر عظيم وبلاء جسيم .

(ومنها التواضع) — وهو ترك الترؤس واظهار الخمول وكراهية التعظيم والزيادة في الاكرام ، وان يتجنب الانسان المباهاة بما فيه من الفضائل والمفاخرة بالمال والجاه ، وان يتحرز من الاعجاب والكبر ، ولا يحمد التواضع الا من أكابر الناس ورؤسائهم وأهل الفضل والعلم . وأما ما سوى هؤلاء فلا يكونون متواضعين بالتواضع . لان الضعة هي محلهم ومرتبتهم . ولو كانوا غير متضعين .

(ومنها البشر) — وهو اظهار السرور بمن يلقاه الانسان من اخوانه وأودّائه وأصحابه وأوليائه ومعارفه . والتبسم عند اللقاء . وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس وهو من الملوك والعظماء أحسن . لان البشر من الملوك والولاة تتألف به قلوب الرعية والاعوان والحاشية ويزداد به تحبباً اليهم . ولا يعدّ سعيداً من الملوك أو الولاة من كان مبغضاً لرعيته . لان ذلك ربما أدى الى فساد أمره وزوال حكمه وملكه .

(ومنها صدق اللهجة) — وهو الاخبار عن الشيء على ما هو عليه. وهذا الخلق مستحسن ما لم يؤد الى ضرر مفرط . فانه ليس يستحسن صدق الانسان ان سئل عن احد ارتكبه . فانه لا يفي حسن صدقه بما يلحقه في ذلك من العار والنقيصة اللازمة . وكذلك ليس يحسن صدقه اذا سئل عن سر استودعه فأذاعه . ولا ان سئل عن جناية متى صدق عنها عوقب عليها عقوبة مؤلمة . والصدق مستحسن من سائر الناس وهو من الملوك والعظماء أحسن . فلا يسعهم الكذب ما لم يعد الصدق عليهم بضرر .

(ومنها ملازمة العفة) — وهو تقصد الخير من جميع الناس وتنكب الخبث والغيلة والمكر والخديعة . وهذا الخلق محمود من جميع الناس . الا انه ليس بملائم للملوك الذين لا بد لهم منه . ولا تتم لهم الحكم الا باستعمال المكر والحيل والاغتيال من الاعداء . ولكن لا يحسن بهم استعماله مع أخصائهم وأصفيائهم وأهل طاعتهم .

(ومنها السخاء) — وهو بذل المال من غير مسئلة ولا استحقاق. وهذا الخلق مستحسن ما لم يؤده الى السرف والتبذير . فان من بذل جميع ما يملكه لمن لا يستحقه لا يسمى سخياً بل يسمى مبذراً ومضيعاً . والسخاء في سائر الناس فضيلة مستحسنة . وأما في الملوك والاولياء فأمر واجب . لان البخل يؤدي الى الضرر العظيم في الاحكام . والسخاء والبذل ترتبط بهما قلوب الرعية والجند والاعوان فيعظم الانتفاع به .

(ومنها الشجاعة) — وهي الاقدام على المكاره والمهالك عند الحاجة الى ذلك ، وثبات الجأش (أي القلب) عند المخاوف ، والاستهانة بالموت . وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس وهو بالملوك وأعوانهم اليق وأحسن بل ليس بمستحق للملك من عدم هذه الخلة . واكثر الناس اخطاراً وأحوجهم الى اقتحام الغمرات . هم الملوك والحكام . فالشجاعة اذاً من أخلاقهم الخاصة بهم .

(ومنها المنافسة) — وهي منازعة النفس الى التشبه بالغير فيما يراه ويرغب فيه لنفسه . والاجتهاد في الترقي الى درجة أعلى من درجته . وهذا الخلق محمود . اذا كانت المنافسة في الفضائل والمراتب العالية . أو فيما يكسب مجداً وسؤدداً . فأما في غير ذلك من اتباع الشهوات والمباهاة بالآلات والزينة وغير ذلك ، فمكروه جدا .

(ومنها الصبر عند الشدائد) — وهذا الخلق مركب من الوقار والشجاعة وهو مستحسن جدا ، مالم يكن الجزع نافعا والحزن والقلق مجدياً ، والحيلة والاجتهاد دافعة ضرر تلك الشدائد . فما أحسن الصبر اذا عدمت الحيلة وما أقبح الجزع اذا لم يكن مفيداً .

(ومنها عظم الهمة) — وهو استصغار مادون النهاية من معالي الامور وطلب المراتب السامية واستحقار مايجود به الانسان عند العطية والاستخفاف بأواسط الامور وطلب الغايات والتهاون بما يملكه وبذله لمن يسأله من غير امتنان ولا اعتداد به . وهذا الخلق

من خصوصيات الملوك والحكام . وقد تحسن بالرؤساء والعظماء ومن تسمو نفسه الى مراتبهم — ومن عظم الهمة الانفة والحمية والغيرة .
فالانفة — هي بعد النفس عن الامور الدنيئة . والحمية والغيرة معا ، والغضب عند الاحساس بالنقص . وتلحق الانسان الغيرة على الحرم لان في التعرض لهن عارا ومنقصة . فان المتعرض لحرمه مهتضم لصاحبهن ومتصرف في غير حق له ، والاهتمام نقيصه . ومن أعظم الهمة الانفة منه . وهذا الخلق مستحسن جدا من جميع الناس .
(ومنها العدل) — وهو التقسط اللازم للاستواء واستعمال الامور في مواضعها وأوقاتها ووجوهها ومقاديرها من غير سرف ولا تقتير ولا تقديم ولا تأخير .

(فصل)

« في الاخلاق الردية التي تعد نقائص ومعائب »

فاما الاخلاق الردية التي تعد نقائص ومعائب فان منها :
(الفجور) — وهو الانهماك في الشهوات والاستكثار منها وايثار اللذات والادمان عليها وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها . وبالجملة السرف في جميع الشهوات . وهذا الخلق مكروه جدا يهدم الحياء ويذهب بماء الوجه ويخرق حجاب الحشمة .
(ومنها الشره) — وهو الحرص على اكتساب الأموال وجمعها

وطلبها من كل وجه ولو تبح طريق اكتسابها والمناوئة عليها والاستكثار من القنية وادخار الاعراض . وهذا الخلق مكروه من جميع الناس الا من الملوك والحكام ، فان كثرة الاموال والذخائر والاعراض تعينهم وتزيدهم هيبة في نفوس رعيتهم وأعوانهم وأعدائهم واضدادهم .

(ومنها التبذل) — وهو اطراح الحشمة وترك التحفظ والاكثار من الهزل واللهو ومخالطة السفهاء وحضور مجالس السخف والهزل والتحمس والتفوه بالخنا وذكر الاعراض والمزح والجلوس في الاسواق وعلى قوارع الطرق والتكسب بالمعادن الزرية والمواضع المسفله وهذا الخلق قبيح بجميع الناس .

(ومنها السفه) — وهو ضد الحلم وهو سرعة الغضب والطيش من يسير الامور والمبادرة في البطش والايقاع بالمؤذي والسرف في العقوبة واظهار الجزع من أدنى ضرر والسب الفاحش . وهذا الخلق مستقبح من كل أحد الا انه بالملوك والرؤساء أقبح منه .

(ومنها الخرق) — وهو كثرة الكلام والهذر من غير حاجة وشدة الضحك والمبادرة الى الامور من غير توقف وسرعة الجواب . وهذا الخلق مستقبح من كل أحد وهو باهل العلم وذوى النباهة أقبح . ومن قبيل ـ قلة الاحتشام لمن يجب احتشامه والمجاهرة بالاجوبة الغليظة الفظة المستشنعة . وهذا الخلق مكروه وخاصة بذوي الوقار .

(ومنها العشق) وهو افراط الحب والسرف فيه . وهذا الخلق مكروه من جميع الناس . وأقبحه ما كان مصروفاً الى الباطل واتباع الشهوة . وقد يحمل هذا الخلق صاحبه على الفجور وارتكاب الفواحش وكثرة التبذل وقلة الحياء ويكسبه عادات رديئة . وهو بالكل قبيح إلا انه بالاحداث والمترفهين المتنعمين أقل قبحاً . اذا كان ميله خالصاً مما ذكرنا.

(ومنها القساوة) وهذا الخلق مركب من البغض والشجاعة . وهو التهاون بما يلحق الغير من الألم والاذى. وهذا الخلق مكروه من كل أحد الا من الجند وأصحاب السلاح والمتولي الحروب ، فان ذلك غير مكروه إذا كان في موضعه .

(ومنها الغدر) — وهو الرجوع عما يبذله الانسان من نفسه ويضمن الوفاء به. وهذا الخلق مستقبح اذ كان لصاحبه فيه مضرة ومنفعة، وهو بالملوك والحكام أقبح وأفحش لأن من عرف منهم بالغدر لم يركن اليه أحد ولم يثق به انسان، فاذا لم يركن اليه فسد نظام ملكه .

(ومنها الخيانة) — وهي الاستبداد بما يؤتمن الانسان عليه من الاموال والاعراض والحرم وتملك ما يستودع وجحد مودعه . ومن الخيانة أيضاً الاخبار اذا نسب الانسان لتدبيرها وتحريف الرسائل اذا حملها وصرفها عن وجهها. وهذا الخلق أعني الخيانة مكروه من جميع الناس ويثلم الجاه ويقطع وجوه المعاش .

(ومنها افشاء السر) — وهذا الخلق مركب من الخرق والخيانة. فانه ليس بوقور من لم يضبط لسانه ولم يتسع صدره لحفظ ما يستسرّ به. والسرّ أحدى اودائع وافشاؤه نقيصة على صاحبه. فالمفشي بالسرّ خائن. وهذا الخلق قبيح جدا وخاصة بمن يصحب الملوك وولياء الامور ويتداخل معهم. ومن قبيل افشاء السر أيضا: الغيبة والنميمة وهي ان يبلغ انسان انسانا عن آخر قولا مكروها. وهذا الخلق قبيح جدا ولو لم يستسرّ أيضا بما يسمعه أو يبلغه. فنقل الى من يكره قبيح لان في ذلك ايقاع وحشة بين المبلغ والمبلغ عنه. وذلك غاية التشرر.

(ومنها الكبر) — وهو استعظام الانسان نفسه واستحسان مافيه من الفضائل والاستهانة بالناس واستصغارهم والترفع على مايجب التواضع له. وهذا الخلق مكروه جدا ومضر بصاحبه. لأن من أعجبته نفسه لم يستزد من اكتساب الأدب. ومن لم يستزد بقي على نقصه إذ أنّ الانسان لا يخلو من النقص قبل ما ينتهي الى غاية الكمال. وأيضا كان هذا الفعل يبغضه عند الناس. ومن يبغضه الناس ساءت أحواله.

(ومنها العبوس) — وهو التقطب عند اللقاء وقلة التبسم واظهار الكراهية. وهذا الخلق مركب من الكبر وغلظ الطبع. فان قلة البشاشة هي استهانة بالناس. والاستهانة بالناس تكون من الاعجاب والكبر. وقلة التبسم خاصة أيضا عند لقاء الاخوان تكون من غلظ الطبع. وهذا الخلق مستقبح وخاصة بالرؤساء والافاضل.

(ومنها الكذب) — وهو الاخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه . وهذا الخلق مكروه ما لم يكن لدفع مضرّة لا يمكن أن تدفع الاّ به أو اجتناء نفع لا غناء عنه. ولا يتوصل اليه إلا به . فان الكذب عند ذلك ليس بمستقبح . وانما يستقبح الكذب اذا كان عبثاً أو لنفع يسير لا خطر له ولا يفي بقباحته . والكذب قبيح بالملوك والرؤساء أكثر لان اليسير من النقص يشينهم .

(ومنها الخبث) — هو اضمار الشر للغير واظهار الخير له رياء واستعمال الحيلة والمكر والخديعة في المعاملات . وهذا الخلق مكروه جدّاً من جميع الناس الا من الملوك والرؤساء فانهم اليه يضطرون واستعمالهم اياه مع اضدادهم واعدائهم غير مستقبح . فأمامع أوليائهم واصحابهم فانه غير مستحسن .

(ومن قبيل الخبث : الحقد) — وهو اضمار الشرّ للجاني اذا لم يتمكن من الانتقام منه فيخفي ذلك الانتقام الى وقت الفرصة . وهذا الخلق من اخلاق الاشرار . وهو مذموم جدّاً .

(ومنها البخل) — وهو منع المستعطي مع القدرة على اعطائه . وهذا الخلق مكروه من جميع الناس إلاّ انه من النساء أقل كراهية بل قد يستحبّ منهنّ ذلك . أما سائر الناس فانه يشينهم وخاصة الملوك والعظماء وذلك لان البخل يبغض منهم أكثر مما يبغض من غيرهم ويقدح في حكمهم ويبغضهم الى رعيتهم .

٣ — تهذيب الأخلاق

(ومنها الجبن) — وهو توهم المخاوف وتمكينها في العقل بدون طائل وعدم الاقدام على الامور عند اللزوم والرعب من مواجهة ذوي الامر عند الاقتضاء • وهذا الخلق مكروه الا انه بالجنود واصحاب الحروب مضرّ جدّاً •

(ومنها الحسد) — وهو التألم مما يراه الانسان لغيره من الخير ويجده فيه من الفضائل والاجتهاد في اعدام ذلك لغيره وزواله • وهذا الخلق مكروه وقبيح بكل أحد •

(ومنها الجزع عند الشدة) — وهذا الخلق مركب من الخرق والجبن • وهو مستقبح جداً اذا لم يكن مجدياً نفعاً • واما اضطراره للحيلة عند الوقوع في الشدة أو لاستغاثة بغيره أو اجتلاب معين للمساعدة فغير مكروه ولا يعد نقيصة •

(ومنها صغر الهمة) — وهو ضعف النفس عن طلب المراتب العالية وقصور الأمل عن بلوغ الغايات واستكثار اليسير من الفضائل واستعظام القليل من العطايا والاعتداد بذلك والرضى بأواسط الامور واصاغرها • وهذا الخلق قبيح بكل احد وهو بالملوك والعظماء أقبح بل ليس بمستحق للاعتبار من صغرت همته •

(ومنها الجور) — وهو الخروج عن العدل في جميع الامور كأخذ الأموال من غير وجهها الحلال والمطالبة بما لا يجب من الحقوق وفعل الأشياء في غير مواضعها ولا أوقاتها ولا على القدر الذي يجب ولا على الوجه الذي يستحب • ومن قبيل ذلك : السرف والتبذير أيضاً •

(فصل)

« في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة »

(وفي بعضهم رذيلة)

(منها حب الكرامة) - وهو ان يسر الانسان بالتعظيم والتبجيل والمقابلة بالمدح والثناء الجميل • وهذا الخلق محمود في الاحداث والصبيان لان محبة الكرامة تحثهم على الرغبة في اكتساب الفضائل. وذلك ان الحدث والصبي اذا مدحا على فضيلة وجدت فيهما، كان ذلك داعيا لهما الى الازدياد في الفضائل • واما الافاضل من الناس فان ذلك يعدّ منهم نقيصة ، لان الانسان انما يمدح على الفضيلة اذا كانت مستغربة منه • أما اذا كان من أهل الفضل ، فلا ينبغي ان يسرّ أو ان يستغرب مايظهر منه من الفضائل • وكذلك الاكرام والتبجيل اذا كان زائداً على استحقاقه فانه يجري مجرى الملق ، والسرور بالملق غير محمود لانه من جنس الخديعة

(ومنها حب الزينة) — وهو التصنع بلبس الثياب الفاخرة وركوب الخيل وكثرة الخدم والحشم وهذا مستحسن من الملوك والعظماء والاحداث والظرفاء والنساء. فأما الرهبان والزهاد والشيوخ واهل العلم وخاصة الخطباء والواعظون ورؤساء الدين ، فان التصنع والزينة مستقبح منهم . والمستحسن منهم هو لبس الخشن وكراهية التنعم ولزوم بيوت الصلاة .

(ومنها المجازاة على المدح) — وهو مجازاة من يمدح الانسان ويشكره في المجالس والمحافل . وهذا الخلق مستحسن من الملوك والرؤساء لانه يدعو المادح الى الازدياد في مدحه فيكتسب الممدوح ذكراً جميلاً يبقى الى الدهر . ومن فضائل الملوك والرؤساء بقاء ذكرهم الجميل . واما محبتهم سماع المدح من المادح مواجهة . فذلك غير مستحب منهم لانه من جنس الملق . وحب الملق مكروه لكونه من قبل الخديعة كما تقدم . فأما ايثارهم فهو انتشار ذكرهم ومدحهم وتناول الناس له وبقاؤه بعدهم . ومجازاة المادح مستحسنة من الملوك ومنعهم مستقبح وعار عليهم ، لان ذلك يدعو الى ذمهم وذمهم يبقى أيضاً الى الدهر فينشىء لهم ذكرا قبيحا . وذلك مكروه من الملوك والرؤساء . أما أصاغر الناس فحبتهم جزاء المادح لهم غير مستحسن ، لان المادح اذا مدح الدنيء من الناس فانما يخدعه . فاذا اجزه اعتقد انه أخذ منه تلك الجائزة بالحيلة . وكثير من الناس اذا مدحوا بما ليس فيهم يبادرون الى مجازاة المادح فيكونون قد وضعوا الشيء في غير موضعه ، فلو صرفوا ذلك الشيء الى الضعفاء وأهل المسكنة كان ذلك أجمل بهم وأليق .

(ومنها الزهد) — وهو قلة الرغبة في الاموال والادخار وغيرها وايثار القناعة بما يقيم الرمق والاستخفاف بالدنيا ومحاسنها ولذاتها وقلة الاكتراث بالمراتب العالية واستصغار الملوك وممالكهم وأرباب الاموال وأموالهم . وهذا الخلق مستحسن جدا من العلماء ورؤساء

الدين والخطباء والواعظين ومن يرغب الناس في المعاد والبقاء بعد الموت . فأما الملوك والعظماء فان ذلك غير مستحسن منهم ولا لائق بهم لان الملك اذا أظهر الزهد صار ناقصاً إذ ان ملكه لا يتم الا باحتشاد الاموال والاعراض وإدخارها ليدبر بها ملكه ويصون بواسطتها حوزته ويفتقد بها رعيته . وهذا مضادّ للزهد. فانه اذا ترك الادخار أبطل ملكه وصار معدودا في جملة الملوك الحائدين عن طريق السياسة .

فهذه الاقسام التي ذكرناها هي اخلاق جميع الناس .

أما الممدحة منها المعدودة فضائل -- فقلما تجتمع كلها في انسان واحد . وأما المذمومة منها المعدودة نقائص ومعائب ـ فقلما يوجد انسان يخلو من جميعها حتى لا يكون فيه خلق مكروه ، وخاصة من لم يروض نفسه ويؤدبها . فان من لا يتعمد ضبط نفسه ويتفقد عيوبه لم يخل من عيوب كثيرة . وان لم يحس بها ولم يفطن اليها . واذا كانت الحال على ما ذكرناه كان أولى الامور بالانسان أن يتفقد اخلاقه ويتأمل عيوبه ويجتهد في اصلاحها ونفيها عن نفسه ويتبع الاخلاق المحمودة ويحمل نفسه على اعتيادها والتخلق بها . لان الناس انما يتفاضلون بالفضائل والاخلاق لا كما يعتقد الجهال وعامة الناس انهم يتفاضلون بالاحساب والمولد وكثرة المال والثروة . وما يفتخر أكثر الناس بالأموال والعقار والآلات وما شاكلها من القنية . وذوي الجدة لباس في محافل . وذلك لان أكثر الناس انما يتفاضلون [illegible] الناس . وأما نفوسهم فلا يكون عندهم من نفوس غيرهم بأكثر [illegible] . وذلك لان

الفاجر السفيه الجاهل الشرير ، وان حوى أموالاً عظيمة فلا يكون بأفضل من العفيف الحكيم الخير العالم ، ولو كان فقيرا . بل انما يكون بكثرة أمواله أغنى منه اذا كان ذاك معسرا فقيرا . وأما التفضل الحقيقي فلا يكون الا بكثرة الفضائل فقط . ولكن ان اجتمع للانسان مع الاخلاق الجميلة والعادات المستحسنة الغنى والثروة أيضا . فلعمري انه يكون أحسن حالاً من الفاضل المعسر . لان [illegible] من سعادات الانسان وخاصة اذا كان فاضلاً عادلا عفيفا يصرف ماله في وجهه وينفقه في حقه ويتفقد به من يجب تفقده ويسعف به أهل المسكنة ولا يتقاعد عن حق يجب عليه ولا يتهامل في مكرمة [illegible] محاسنه. أما الناقص الجاهل السيء العادات فان الغنى ربما زاده [illegible] وعيوبا وأضاف الى معايبه عيوبا أخرى . ولا [illegible] بخيلا من [illegible] له وان كان البخل من طبعه . لان فقره [illegible] ذلك منه . [illegible] منه هذا الأمر فلا يعاب عليه لان الانسان [illegible] منه . وأما من كان ذا مال [illegible] بخله [illegible] جالبا عليه عارا . وأيضا فان أكثر الفجور والمحظورات [illegible] الرديئة لا تنال غالبا إلا بالأموال . فالفقير [illegible] وان كان فجورا فلا يكاد يظهر ذلك منه . أما اذا كان ذا مال [illegible] فتظهر حينئذ عيوبه . وبناء عليه يكون الغنى مكسبا لصاحبه [illegible] عيوبا ونقائص والفقر فضائل ومحاسن . فينتج من ذلك [illegible] ان الناس لا تتفاضل حقيقة بالاموال والذخائر ، بل انما يتفضلون بالآداب والمحاسن الذاتية. فالخليق بالانسان أن يسوس نفسه بالآداب المستحسنة ويسلك بها

الطريق المحمودة فانه بذلك يكون محبوباً عند الناس مقبولاً لديهم معظماً في نفوسهم مفضلاً عن غيره موقراً عند الرؤساء والملوك مقبول القول عظيم الجاه. فهذه هي حالة العظمة الحقيقية المكتسبة بالاموال. لان المال قد تلحقه المصائب . فاذا فارق صاحبه سقطت منزلته من نفوس الناس وساوى العامة والسوقة . وذلك لان المعظم له كان ماله لا نفسه. فمتى زال ذلك المال لم يبق له شيء يعظم من أجله وليس كذلك العالم النفيس الفاضل المهذب الاخلاق لان عظمته بفضائله وهي غير مفارقة له . فهو معتبر دائماً ومعظم من أجل ذاته لا لشيء خارج عنه. وبما ان الراغب في سياسة نفسه المؤثر تهذيب أخلاقه اذا نبه على خلق مذموم وجد فيه وأحب اجتنابه . ربما صعب عليه الانتقال عنه من أول وهلة . وربما لم ينل التخلص منه ولم يطاوعه طبعه أو ربما استحسن أيضاً خلقاً محموداً لا يجده لنفسه وآثر التخلق به ولم تسمح له عادته ولم يصل الى مراده . لذلك وجب ان يرسم للراغبين في السياسة المحمودة طرق يتدربون بها ويتدرجون فيها حتى ينتهوا الى مرادهم من اعتياد الاخلاق الجميلة والانطباع عليها وتجنب الاخلاق القبيحة والتفرغ منها.

ونحن الآن نذكر الارتياض بالاخلاق المحمودة والعمل لاعتيادها لكي يتمكن الراغب المؤدب ان يتخلق بها . فنقول :

قد ذكرنا فيما تقدم ان سبب اختلاف الاخلاق في الناس هو اختلاف قوى النفس الثلاث فيهم . وهي الشهوانية والغضبية والناطقة. وان اصلاح الاخلاق هو ان تعدل الشهوانية منهم والغضبية وتميز عادات

النفس الناطقة واستعمال المحمود من افعالها . فطريق التدرج لاستعمال العادات الجميلة والعدول عن العادات القبيحة هو التدرج في تذليل هاتين القوتين . أما النفس الشهوانية فالطريق الى قمعها ان يتذكر الانسان في أوقات شهواته وعند شدة العزم الى لذاته انه يريد تذليل نفسه الشهوانية فيعدل عما تاقت نفسه اليه من الشهوة الرديئة الى ما هو مستحسن من جنس تلك الشهوة ومتفق على ارتضائه ويقتصر عليه . فان لم تنكسر شهواته يعللها ويعدها فان سكنت انتصر والا عاود الفعل من الوجه المستحسن . فانه اذا فعل ذلك وكرره كنت النفس ، واذا استمر على هذه الحال الفت هذه العادة وتأنست بها واستوحشت مما سواها . وينبغي لمن أراد قمع نفسه الشهوانية ان يكثر من مجالسة الزهاد والرهبان والنساك وأهل الورع والراهبين ويلازم على مجالس الرؤساء وأهل العلم . فان هؤلاء وخاصة رؤساء الدين يعظمون من كان معروفا بالعفة ويستزرون من كان متجاهرا منهمكا . فمجالسته وملازمته لهذه المجالس تضطره الى التصون و [illegible] والتجمل لذوقهم لئلا يستزروه ويغضبوا منه . ويلحق برتبته من يعظم في المحافل والمجالس . وينبغي له أيضا ان يديم النظر في كتب الاخلاق والسياسة وأخبار الزهاد والرهبان والنساك وأهل الورع ويتجنب مجالس الخلعاء والسفهاء والمنهمكين ومن يكثر الهزل واللعب ويتجنب يلحق برتبته ويعظم في المحافل . وأكثر ما يجب له أن يتجنب السكر، فانه مما يثير نفسه الشهوانية ويقويها ويحملها على التهتك والارتكاب

الفواحش والمجاهرة بها وذلك ان الانسان انما يرتدع عن القبائح بالعقل والتمييز . فاذا سكر عدم ذلك الذي كان يردعه عن الفعل القبيح . وحينئذ لا يبالي بارتكاب كل ما كان يتجنبه في حال صحوه . فأولى الاشياء بمن يطلب العفة هجر الشراب بالكلية وان لم يمكنه ذلك فليقتصر على اليسير منه ويكون في الخلوات أو مع من يحتشمه . ويتجنب مجالس المجاهرين بالشراب والسكر والخلاعة ولا يظن انه اذا حضر تلك المجالس واقتصر على اليسير من الشراب لم يضره ذلك لان هذا غلط مبين . وذلك ان من يحضر مجالس الشراب لا تنقاد له نفسه الى القناعة باليسير منه بل ان حضرها وكان في غاية العفة تاركاً الشرب متمسكاً بالورع حاله شهوته على التشبه بأهل [illegible] وتاقت نفسه الى التهتك وهو أكثر من فعل ذلك التهتك بعد التستر [illegible] . فأولى الأحوال بمن يطلب العفة [illegible] هذه المجالس ومخالطة أهلها والاستكثار من مسامرتهم . وينبغي لمن أراد قمع نفسه الشهوانية ان يقلل من استماع الغناء وخاصة من النساء المغنيات [illegible] فان للسماع قوة عظيمة في اثارة الشهوة . فكيف اذا انضاف الى ذلك أن تكون المغنية مستترة [illegible] . [illegible] حوادث كثيرة ربما لا يستطيع دفع جميعها عن نفسه . فالأولى بمن يطلب قهر الشهوة ان يتجنب السماع وان لم يمكنه منه بد ولا تسمح له نفسه الى هجره بالكلية . فيقتصر على استماعه من الرجال أو ممن لا تحرك الشهوة فيه . والاقلال منه خير

وانصف للمتعفف . اما الطعام فينبغي ان تعلم ان غايته هو الشبع لدفع ألم الجوع ، وفاخر الطعام ودنيئه بجميعها مشبعان ، فليس للمبالغة فى تجويد الطعام الكثير حظ ولا فائدة . والاولى هو التوسط في انواع المآكل وان يكون من الجنس الذي نشأ عليه الانسان واعتاده وألفه، الا ان شهوة الطعام والنهم فيه وان كانت من الاخلاق الرديئة فهي خفيفة لا تكسب صاحبها من العار ما تكسبه محبة الشراب والانهماك ومعاشرة النساء أهل الخلاعة ومصاحبة الأحداث المتهتكين للذواحش. فان ذلك في غاية القبح . فشهوة المآكل أقل قبحاً منه وأخف على فاعلها وهو مع ذلك قبيح والاستهتار به وكثرة النهم فيه مكروه . فطريق التدرج الى الاقتصار في الطعام هو ان يبادر ذو الشهوة الى أي شيء وجده من المآكل ، فان كان المشتهى الذي تدعو نفسه اليه حلواً فالى اية حلاوة وجدها. وان كان غير ذلك فالى ما يستهويه من الطعام فانه اذا تناول الانسان من ذلك تكراراً وشبع منه سكنت شهوته وكفت نفسه بعد ذلك .

وينبغي لمن أحب العفة أن يكون أبداً متيقظاً ذاكراً لما يلحق الفاجر والنهم والشره والمتهتك من القباحة والعار في الدنيا فيجعل ذلك ديدنه وشعاره ومداوماً على ذكره فان نفسه حينئذ تبغض الشهوات الرديئة وتشتاق الى التعفف والقناعة وتطرب عند العدول عن الفواحش مع القدرة عليها وترتاح لما ينتشر عنها وما يبلغها عن الناس من الثناء الجميل على صاحبها . فهذا هو طريق رياضة النفس

الى قهر القوة الشهوانية وتذليلها وقمعها . أعني طريق الارتياض بالعادات المحمودة المرضية فيما يتعلق بالشهوات واللذات الدنيئة.

فأما النفس الغضبية فان طريق قمعها وتذليلها هو أن يصرف الانسان همته الى تفقد السفهاء الذين يسرع اليهم الغضب في أوقات طيشهم وحدتهم ويلاحظ تسفههم على أخصامهم وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم فانه يشاهد اذ ذاك منظراً شنيعاً يأنف منه الخاص والعام وان يتذكر في أوقات غضبه وعند جنايات خدمه وعبيده ووثوب اخوانه واودائه في جميع محاوراته ومعاملاته ما شاهده من أولئك. فانه اذا تفكر فيما كان استخففه منهم فتنكسر بذلك ثورة غضبه ويحجم عما هم بالاقدام عليه من السب والوثوب ، فان لم يكف بالكلية قصر ولم ينته الى غاية الفحش .

وينبغي لمن أراد أن يقهر نفسه الغضبية أن يتذكر في أوقات غضبه على من يؤذيه أو يتجنى عليه أنه لو كان هو الجاني ما الذي كان يستحق أن يقابل على جنايته . فانه بهذا الفعل يعتقد أن درك تلك الجناية وبال لاذى يسير جداً . فاذا اعتقد ذلك كانت مقابلته للجاني المؤذي بحسب عقده خفيفة . وحينئذ لا يسرف في الانتقام ولا يفرط في الغضب فان تعود ذلك دائماً وجعله ديدنه وتفقد معائب السفهاء ومن يسرع اليه الغضب لم يبعد أن تنكسر نفسه الغضبية وتنقاد له . واذا استمر على هذا العمل مدة صار له خلقاً وعادة .

وينبغي لمن رغب في تذليل نفسه الغضبية أن يتجنب حمل السلاح

في مجالس الشراب وحضور مواضع الحروب ومقامات الفتن ومجالسة الاشرار ، وان يتجنب أيضاً معاشرة ومخالطة الشرط فان هذه المواضع تكسب القلب قساوة وغلظاً وتعدمه الرأفة والرحمة فتقسو لذلك نفسه الغضبية . فاذا كان يريد تذليلها وتسكينها يجب عليه أن يجعل مجالسته لاهل الوقار والشيوخ والرؤساء والافاضل ومن يقلّ غضبه ويكثر حلمه ووقاره .

وينبغي له أيضاً أن يتجنب السكر من الشراب فانه يهيج النفس الغضبية أكثر مما يهيج النفس الشهوانية . لان السكران ربما أسرع الى العربدة والوثوب على جلسائه والاستخفاف بهم وسبهم وذكر أعراضهم بالقبيح بعد ان كان يتحنن عليهم ويتودد اليهم ، ولا يكون بين الرفيقين الا مقدار ما يستحكم به السكر . فالسكر والخمر مثير القوة الغضبية ومقوّ لها . فمن اراد أن يقهر نفسه الغضبية . فلا بدّ له من أن يتجنب السكر . وان تمكن من هجر الشراب كلية فهو أصلح لقهر النفس الغضبية والشهوانية جميعاً .

وينبغي لمن أراد تذليل قوتيه الغضبية والشهوانية [illegible] أن يستعمل في [illegible] الفكر ولا [illegible] الا [illegible] ويحمل الفكرة وانبع الرأي [illegible] فكر [illegible] واتباع [illegible] والفكر [illegible]

يريد الاسراع اليه . وملاك الامر في تهذيب الاخلاق وضبط النفس الشهوانية والنفس الغضبية هو النفس الناطقة فان بهذه النفس تكون جميع السياسات . فاذا كانت قوية متمكنة من صاحبها أمكنه أن يسوس بها قوتيه الباقيتين ويكفّ نفسه عن جميع القبائح ويتبع أبداً محاسن الاخلاق . واذا لم تكن تلك النفس قوية في صاحبها كانت مغمورة خافية .

فأول ما ينبغي أن يعتمده العاقل في سياسة أخلاقه هو أن يروض تلك القوة ويقويها . وهذا انما يكون بالعلوم العقلية فانه اذا نظر في تلك العلوم ودقق النظر فيها ودرس كتب الاخلاق والسياسة وداوم عليها تيقظت نفسه وتنبهت من شهواتها وانتعشت من خمولها وأحست بفضائلها وأنفت من رذائلها . وذلك لان تلك النفس انما تضعف وتنحط اذا عدمت الفضائل والمناقب واستولت عليها الرذائل والخسائس . فأما اذا اقتنت الفضائل واكتسبت الآداب تيقظت من غفلتها وثارت من سكرتها وقويت بعد ضعفها . وأما فضائل [illegible] فهي العلوم العقلية وخاصة ما دق منها . فاذا ارتاض الانسان بها استنارت نفسه وعظمت همته وقوي تمييزه وتمكن من [illegible] [illegible] وقدر على اصلاحها وانقادت [illegible] [illegible] [illegible] قوتاه الغضبية والشهوانية وهان [illegible] [illegible] .

فأول ما ينبغي أن يعتمده من يحب سياسة أخلاقه هو النظر

في كتب الاخلاق والسياسات ثم الارتباض بعلوم الحقائق فان أشرف ما يكون هو ادراك النفس حقائق الامور وأشرفها على هيآت الموجودات. فمتى شرفت نفس الانسان وعلت همته رقي الى مراتب الفضل. ومما يصلح النفس الناطقة ويقويها أيضاً مجالسة أهل العلم وشاكلتهم والاقتداء باخلاقهم وعاداتهم وخاصة أصحاب علوم الحقائق والمتيقظون منهم المستعملون في جميع أمورهم ما تقتضيه علومهم وتوحيه عقولهم.

اما تمييز عادات النفس الناطقة واستعمال ما حسن فيها واطراح ما قبح عنها فذلك انما يمكن ويتسهل اذا راض الانسان نفسه الناطقة. فان النفس الناطقة اذا ارتاضت بالعلوم الحقيقية وتيقظت وتشرفت انفت من العادات المستقبحة وتنزهت عن التدنيس بها ، فيهون حينئذ على صاحبها أن يتجنب ما يستكره من عاداتها ويغلب عليه استحسان الاخلاق الجميلة والتخلق بها . فقد تبين اذاً من جميع ما ذكرناه ان طريق الارتياض بالاخلاف المحمودة والنفس لاعتيادها واتباع محمود المرضي منها واجتناب المذموم المستقبح وتذليل قوة الشهوة الغضبية وضبطها وقهرها هو اصلاح القوة الناطقة وتقويتها وتحليتها بالفضائل والآداب والمحاسن فان ذلك هو آلة السياسة ومركب الرياضة . ومن لم يتمكن من إكتساب العلوم العقلية والامعان فيها وتعذر عليه ذلك فليبذل جهده في تدقيق الفكرة ومجاهدة النفس وبعد ويفرق ما بين عادته القبيحة والجميلة وينظر أيهما أجدى عليه وأنفع له وأيهما

أحمد عقبة وأبقى على الأيام . فانه اذا صدق ما تأكدته نفسه وجد
ان شهواته ولذاته انما هي مدة وقت استعمالها فقط . أما بعد مفارقتها
فليست باقية عليه ولا نافعة له ، ويجد عارها وشينها باقيا في الدهر
متداولا فيما بين الناس يعاب به ويزري عليه ، وكذلك في سورة
الغضب والاسراع الى الانتقام والسب والفحش . فمتى انحلت سورته
وسكنت ثورته تأمل أمره فرأى ان ما فعله كان قبيحا ولم نجده مجديا
ولا مفيدا وقد صار ما فعله وقت الغضب نقيصة يعاب بها ومعرة
يسب عليها ، وربما ارتكب حال الغضب جنايات كثيرة يعاقب عليها
ويؤذى من أجلها . كذلك العادات المكروهة في نفس [illegible]
أبدا غير نافعة ولا مجدية للانسان نفعا كالحسد مثلا والحقد والحب
وامثال هذه اذ لا ينتفع بها صاحبها وان استمع كان شر منفعة ومع
ذلك فهي مضرة له لان من [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

بالضرر الكثير والعار الدائم المتصل . واعلم أيضا ان الحسد والخبث يجلبان عليه الشر ويوحشان منه الناس ، فاذا دام وأكثر الذكر في هذه الأمور قوى في نفسه اتباع محاسن الاخلاق وسهل عليه اطراح مساوئها ومقابحها وغلب عليه الخير والسداد وفزع من العيب والعار . واذا فعل ذلك دائماً لم يلبث أن تصلح أخلاقه وتحسن طريقته وتتهذب شمائله ويلحق برتبة أهل الفضل ويتميز عن أهل الدناءة والنقص .

وينبغي لمن أراد سياسة أخلاقه أن يجعل غرضه من كل فضيلة غايتها ونهايتها ولا يقنع منها بما دون الغاية ولا يرضى الا بأعلى درجة فانه اذا جعل ذلك غرضه كان حريا أن يتوسط في الفضائل ويبلغ فيها رتبة مرضية ان فاتته الدرجة العليا . وأما ان قنع بالتوسط لم يأمن أن يقصر عن بلوغه فيبقى في ادنى المراتب ويفوته المطلوب ولا يطمع أبداً في التمام .

فهذا الذي ذكرناه هو طريق الارتياض بمكارم الاخلاق ومنهج التدرج في محمودها وكيفية تهذيبها فاذا أخذ الانسان بتدريب نفسه به وأكثر من مراعاته وتعهده صارت له الفضائل ديدناً والمحاسن خلقاً وطبعاً .

هذا وقد بقي علينا أن نذكر أوصاف الانسان التام الجامع لمحاسن الاخلاق وطريقته التي يصل بها الى التمام . فنقول : ان الانسان التام هو الذي لم تفته فضيلة من الفضائل ولم تشنه رذيلة

من الرذائل . وهذا الحد قلما ينتهي اليه انسان . واذا انتهى اليه انسان كان بالملائكة أشبه منه بالناس. وذلك لان الانسان مضروب بأنواع النقص مطبوع على طبعه ضروب الشر . وبناء على ذلك قلما تخلص نفس من عيبها حتى تسلم نفسه من كل عيب ومنقصة وتحيط به كل فضيلة ومنقبة حسنة. فالتمام وان كان عزيزاً بعيد التناول الا انه ممكن. وهو غاية ماينتهي اليه الانسان . فاذا صدقت عزيمته وأعطى الاجتهاد حقه كان ممكناً له ان ينتهي الى الغاية المقصودة المتهيء هو لها تلك التي تسمو نفسه اليها .

أما تفصيل أوصاف الانسان التام المهذب الاخلاق الجامع للمحاسن الظاهرة فهو ان يكون متفقداً لجميع أخلاقه متيقظاً لسائر معائبه متحرزاً من دخول نقص عليه، مستعملاً لكل فضيلة ، مجتهداً في بلوغ الغاية عاشقاً لصورة الكمال مستلذاً بمحاسن الاخلاق. متيقظاً لمذموم العادات. معتنياً بتهذيب نفسه غير مستكثر لما يقتنيه من الفضائل. مستعظماً لليسير من الرذائل. مستصغراً للرتبة العليا. مستحقراً للغاية القصوى، يرى التمام دون محله والكمال أقل أوصافه .

أما الطريقة التي توصله الى التمام وتحفظ عليه الكمال، فهي أن يصرف عنايته الى النظر في العلوم الحقيقية . ويجعل غرضه الاحاطة بماهيات الأمور الموجودة وكشف عللها وأسبابها ؛ وتفقد غاياتها ونهاياتها . ولا يقف عند غاية من عمله الا ويرمق بطرفه الى مافوق

تلك الغاية . ويجعل شعاره ليله ونهاره قراءة كتب الأخلاق وتصفح كتب السير والسياسات ، وأخذ نفسه باستعمال ما أمر أهل الفضل باستعماله وأشار المتقدمون من الحكماء بعتباره . ويأخذ أيضاً حظه من أدب اللسان والبلاغة،ويتحلى بشيء من الفصاحة والخطابة ويغشى أبداً مجالس أهل العلم والحكمة،ويعاشر دائماً أهل الوقار والعفة . هذا ان كان من عوام الناس . واما اذا كان ملكاً أو رئيساً فينبغي له أن يجعل كلا من جلسائه ومنادميه وأعوانه والمحدقين به من أهل العلم والأدب موصوفاً بالحكمة والوقار موسوما بالفهم والفطنة، ويقرب مجالس أهل العلم ويبسطهم ويكثر من مجالستهم والأنس بهم ويجعل انبساطه وتفكهه مذاكرتهم في العلم وفنونه أو سياسة الملك ورسومه وأخبار الحكماء وأخلاقهم وسير الملوك الأخيار وعاداتهم . وينبغي للانسان التام ولمن يطلب التمام أيضاً ان يجعل لشهواته ولذاته قانوناً راتباً يقتصد به الاعتدال فقط ويتجنب السرف والافراط ويعتمد من الشهوات واللذات على ما كان من الوجوه المرضية المستحسنة ويعود نفسه بذلك ويحصر عليها الالمام في لذة مكروهة أو شهوة مسرفة ،ويهجر أصحاب اللذات ومعاشرتهم ويتباعد عن الخدمة ومخالطتهم ويعتبر في نفسه ان الشهوة عدو مكاشح وخصم مكاتم يريد ابداً اضراره وأذيته وشينه وفضيحته فيناصب شهوته مناصبة العدو ويكاشفها بالمعاندة ويقمع أبداً سلطتها ويكسر دائماً حدتها ويقهر على الدوام سطوتها ويذلل على التدريج عزها ويسكن على الترتيب حدتها . فانه

اذا دعا ذلك كان خادماً بأن تملك نفسه وتنقاد له شهوته وينطبع على العفة ويأنف من الشرهة. وأما اذا أرخى لشهواته عنانها وسمح لها في مراداتها وأهمل سياستها ومراعاتها استطالت عليه وشمخت ولم تلبث ان ترمي صاحبها وتقوده وتحمله على ما يسوؤه ويغره ، فيصير بذلك عبداً من عبيدها ذليلاً في الحال .

وينبغي أيضاً لمن يطلب التمام ان يعلم انه لا سبيل له الى بلوغ غرضه ما دامت اللذات عنده مستحسنة والسيرة بها مستحبة . وهذه الحالة صعبة جداً تعسر على طالبي الأمور وتجعلها بعيدة الأخذ جداً . وهي على الملوك والرؤساء أعسر وأبعد . وذلك لأن الملوك والرؤساء أقدر من غيرهم على اللذات وأشد تمكناً من الشهوات . وهي على الدوام معروضة لهم . وقد صارت فيهم بالأغنياء عليهم سجية وطبعاً . فمفارقتها والمخالفة عنها تعز عليهم واعراضهم عنها محنة خاصة لمن قد نشأ فيها وتعود عليها . الا ان الملوك وإن كانوا أقدر على اللذات واكثر اعتياداً لها كثيراً من الناس فهم أعلاهم همماً وأعز نفوساً فاذا سمحت نفس الملك الى التمام الانساني واشتاقت الى الرياسة الحقيقية ، علم ان الملك أحق بأن يكون أتم أهل زمانه وأفضل من أعوانه ورعيته. فيهون عليه حينئذ مفارقة الشهوات الرديئة وهجر اللذات الدنيئة.

وينبغي أيضاً لمن رغب في سياسة أخلاقه وأحب أن يسلك طريق الاعتدال في شهواته ان يجعل له قانوناً يقتصر عليه في المأكل والمشرب مخصوصاً مؤسساً على الجود والكرم غير متبدئ بنفسه حين الأكل

بل مشاركا غيره في ماله ، هذا ان كان من الرعية والعوام . وأما اذا كان ملكاً أو رئيساً فينبغي له ان يجلس على مائدته حين الأكل أصحابه وأعوانه ويتفقد بفضلاته أهل الفقر والمسكنة وخاصة من سبقت له معرفة أو تقدمت له حرمة ، ويصرف همته في مباسطتهم ومؤانستهم مظهراً الفرح والسرور بهم . وليتحرز كل التحرز من أن يبدو منه امتنان بالطعام والشراب أواعجاب وتفاخر فان ذلك يزري به ويبغض منه ويوحش من يخشاه ويقطعهم عنه . وقد يستحسن من الانسان أيضاً اذا كان مقلاً أن يواسي بطعامه وشرابه اخوانه وأصحابه بحسب امكانيته وماتصل اليه يده . ويستحب منه خصوصاً أن يواسي به الفقراء والضعفاء .

وينبغي لمن طلب السياسة التامة ان يستهين بالمال ويحتقره وينظر اليه بالعين التي يستحقها . وذلك لأن المال انما يراد لغيره لا لذاته . فانه في نفسه غير نافع بالكلية . وانما الانتفاع بالأغراض التي تنال به . فالمال والحالة هذه آلة تنال بها الأغراض ، فلا يجب أن يعتقد ان اقتناءه واذخاره مفيد في ذاته وذلك لأنه اذا ذخر وحرس عليه لم ينل صاحبه شيئاً من الاغراض التي هو بالحقيقة محتاج اليها . فالمال اذاً يطلب لغيره لا لذاته كما تقدم . وينبغي للسديد الرأي العالي الهمة ان يزنه بوزنه فيكسبه من وجهه ويفرقه في وجهه ويكون مع ذلك غير متوانٍ في اكتسابه ولا متكاسل في طلبه . لأن عدم المال

تنظره الى متواضع لمن هو دونه اذا وجد عنده حاجته . ووجوب الدخول بخدمة ممن هو فوقه ولو دنت منزلته . ويكون أيضاً غير متمسك به بل يصرفه في حاجاته وينفقه في مهماته ويقصد الاعتدال في تفريقه ويحذر من السرف والتبذير في خروجه . ولا يمنع حقا يجب عليه . ولا يصرفه في شيء لايجب ولا يشكر عليه . واذا فرغ من حاجاته واستكفى من نفقاته وسد جميع خلاله عاد الى النظر في أمره . فان بقي من ماله بقية فاضلة عن مهم أغراضه أخرج منها قسطاً للضعفاء والمساكين وأهل الفاقة المستورين . ويجعل اهتمامه بأفضاله وبره أكثر من اهتمامه بضرورياته . هذا إن كان من أواسط الناس . أما الملوك والرؤساء فانهم أحق بهذه السياسة بل وفضلا عن ذلك يجب أن يكونوا أشد عناية من غيرهم فيجتنوا أموالاً من حقها ووجهها ويصرفوا منها في نفقاتهم ومؤوناتهم وأرزاق جندهم وأصحابهم قدر الكفاية من غير سرف ولا تقتير . ويذخروا منها شطراً لخوف عاقبة ويصرفوا الباقي في طرق الكرم والجود ووجوه الخير والبر ، فيعطوا أهل العلم على طبقاتهم ويجعلوا لهم دوانق من خواص أموالهم ويدفعوا شيئاً لمن كان مثابراً على العلم والأدب ، ويبروا الضعفاء والمساكين ويفتقدوا الغرباء ويهتموا بأولي الزهد والنسك ويخصوهم بقسط من أفضالهم وانعامهم ، ويعنوا بالصغير والكبير من رعيتهم وينفقوا في مصالحهم شطراً من أموالهم . فان الملوك أولى بالكرم من الرعية

وأحق بالجود من العامة . وقد يستحسن أيضاً من الفاين والمقترين المواساة بالمال والايثار به ، وإن كانوا محتاجين اليه . وكل ما كانت حاجتهم اليه أشد كان ذلك الفعل حسنا منهم . وهذه الحالة تستحسن خصوصاً اذا رأى الانسان أخاً من اخوانه أو صديقاً من أصدقائه قد دعته الحاجة الى مالا يقدر عليه لاصلاح شيء من شأنه أو لدفع محنة نزلت به وكان هو قادراً على ذلك القدر من المال . فيبتدىء حينئذ باسعافه من غير مسئلة . فان فعل هذا الفعل مع الغريب الذي لا يعرفه ولم تسبق له محبة ولا مودة كان جميلاً مستحسناً .

وينبغي لمن يحب الكمال ان يشعر نفسه ان الغضبان هو بمنزلة البهائم والسباع، يفعل ما يفعله من غير علم ولا روية . فاذا جرى بينه وبين غيره محاورة أدت الى أن يغضب خصمه ويسفهه عابه اعتقاده اذ ذاك انه في تلك الحالة بمنزلة البهائم والسباع . فيمسك عن مقابلته ويحجم عن الاقتصاص منه حيث يعلم ان الكلب لو نبح عليه لم يكن يستجيز مقابلته على نبحه . وكذلك البهيمة لو جمحت ورمحت لم يستحسن عقوبتها، حيث انها غير عالمة بما تصنعه الا ان يكون جاهلا سفيهاً فان من السفهاء من يغضب على البهيمة اذا رمحته ويوجعها ضرباً اذا أذته وربما عثر السفيه فشتم موضع عثرته ورفسها برجله . وأما الحكيم الوقور فلا يستحسن شيئاً من ذلك . واذا استشعر من خصمه انه بمنزلة البهائم حال الغضب صار هذا الاستشعار منه طريقا الى ضبط النفس الغضبية وزمها . فان اذاه مؤذ بغير سبب فأداه ذلك

الى حد ل غضبه ، أنف أيضا من الغضب وشعر في نفسه ان الغضبان والبهيمة هما بمنزلة واحدة، فيعدل حينئذ الى مقابلة مؤذيه بما يقتضيه الرأي السليم من حيث لا يظهر فيه غضب ولا سفه .

وينبغي لمحب الكمال أيضا أن يعود نفسه على محبة الناس أجمع والتودد اليهم والتحنن والرأفة عليهم والرحمة بهم . فان الناس من قبيل واحد متناسبون تجمعهم الانسانية وتحليهم قوة الهيئة الاجتماعية التي هي في جميعهم وفي كل واحد منهم . وبهذه المزية التي هي من متعلقات النفس الناطقة صار الانسان انسانا . فالانسان اذاً هو النفس العاقلة وهي جوهر واحد في جميع الناس . واذا كان الأمر كذلك كان من الواجب أن يكونوا كلهم متحابين متوادين ، وذلك في الناس طبيعة غريزية . اذا لم تقدهم النفس الغضبية الى فعل ما لا ينبغي فان بهذه النفس يحب الانسان الترأوس والكبر والاعجاب والتسلط على المستضعف واستصغار الفقير وحسد الغني وبغض ذوي الفضل . فيتسبب عن ذلك العداوات وتتأكد البغضة بين الانسان وصاحبه . اما اذا ضبط الانسان نفسه الغضبية وانقاد لنفسه العقلية صارت له الناس احباباً واخواناً. واذا أعمل فكره رأى الانسان ان ذلك واجب، فالناس اذاً أما أن يكونوا فضلاء أو نقصاء . فالفضلاء يجب عليهم محبتهم لمبادئ فضلهم ، والنقصاء يجب عليهم رحمتهم لموضع نقصهم . وبناء على ذلك يجب لمحب الكمال أن يكون محباً لجميع الناس متحنناً عليهم رؤوفاً بهم وخاصة الملك والرئيس . فان الملك لا يكون ملكاً

ما لم يكن محباً لرعيته رؤوفاً بهم . لان الملك ورعيته بمنزلة رب الدار وأهل داره، وما أقبح أن يكون رب الدار مبغضا لاهل داره لا يتحنن عليهم ولا يحب صالحهم .

وينبغي لمحب الكمال ان يجعل همته فعل الخير مع جميع الناس نافقاً ما يفضل من ماله في ما يبقي له الذكر الجميل بعد موته متحرزا من فعل الشر .وذلك لانه اذا حاسب نفسه حساباً مدققاً علم ان من يفعل الشر فانما يفعله لخير يعتقد انه لا يصل اليه الا بذلك الشر . ولربما كان ذلك غلطاً. واذا علم ان الأمر على هذه الصفة كان واجباً أن يطلب الخير الذي يرومه من طريق مناسبة غير طريق الشر ، إذ ان هذا هو الغرض المطلوب لا فعل الشر . فأما ان كان تشرره لشفاء غيظ لحقه ، فليعلم انه متى سكن غيظه وجد ان ذلك المقصود بالشر غير مستحق لذلك الفعل . ففعل الشر قبيح وخاصة بمن قد جمع بين الفضائل والعلم إلاّ أن يكون تأديباً على جرم أو اقتصاصاً من جان ، فانهذه الحالة تكون مستحسنة محمودة، بل لا تعدّ شراً لان ذلك الشرّ انما يصل الى الجاني فقط ويكون منه نفع عامّ لجميع الناس بأن يرتدع به أمثاله من الجناة فتكون المنفعة به أكثر، فمن أجل هذا لا يعدّ شريرا من فعل ذلك . واذا تعوّد الانسان فعل الخير وألفه وتجنب الشرّ واستوحش منه أنف من الاخلاق المكروهة التي تعدّ شراً كالحسد والحقد والخبث والخديعة والنميمة والغيبة والوقيعة وامثال

ذلك . واذا فكر العاقل علم انها جميعها غير مجدية له نفعاً بالكلية ومي مع ذلك تسبنه بقبح سيرتها . واذا كان محباً للتمام راغباً في الكمال كان من الواجب عليه أن يتجنب تلك الاخلاق المذمومة .

وينبغي لمحب الكمال أن يعتقد انه ليس شيء من العيوب والقبائح خافيا عن الناس . ومهما اجتهد فاعل الشرّ في ستر شره فلا ينبغي أن تطمع نفسه في اخفائه فإن قبيح يظن أنه يكتم عن الناس حتى لا يقف عليه أحد . ويجب أن يعلم أيضاً ان الناس بالطبع موكلون بتتبع عيوب الناس وتعييرهم بها . وهـذا طبع غريزي في سائر الناس . والسبب فيه ان الانسان مالم يبلغ التمام فليس يخلو من تقصير يعاب به وبناء على ذلك يسوءه ان يرى غيره أفضـل منه ويود لو ان تكون الناس كلهم نقصاء ليساووه في النقص . وقد يظن كثير من العظماء والرؤساء ان عيوبهم مستورة عن أعين الناس غير ظاهرة لهم : وذلك لموضع هيبتهم وعظم سطوتهم . ويظنون ان حاشيتهم وخواصهم لا يجسرون على اظهار أسرارهم ولو وقفوا على شيء منها ، وهذا نهاية الغلط ، لأن خواص الأمراء وحاشيتهم كما انهم عندهم ثقات أمناء كذلك لكل واحد منهم خواص وثقات يخرج اليهم أسراره . وهذه الحالة طريق عمومية لانتشار معائب الرؤساء والعظماء الذين يظنون انها مستورة عن أعين الأنام . والعلة في ظنهم هذا انوهمي هو انهم لا يسمعون أحداً يذكرها لهم ولا أحداً ينصحهم عنها فيتوهمون بذلك انها خفيت

عن الناس بالكلية. ولهذا اذا أحب الانسان ان يتأكد ان عيوبه غير خافية يعود الى نفسه فينظر هل يعرف لأحد عيبا كان يستره ويخفيه. فانه يجد للناس عنده عيوباً كثيرة قد اجتهدوا في سترها وحرصوا على صونها . ومنهم من يظن انها خفيت ومنهم من يعلم انها قد انتشرت بعد الستر ، فاذا علم بأنه عارف بأسرار كثيرين من الناس كانت مستورة . فبالواجب أن يعتقد ان عيوبه هو أيضاً غير خافية ولا مكتتمة وان الناس يعرفون من عيوبه اكثر مما يعرف هو من عيوبهم. ولهذا ينبغي لمن أحبّ الكمال أن يعتقد أن عيوبه ظاهرة ولو اجتهد في اخفائها. وانه ليس بتامّ من عرف له عيب. فلا طريق الى التمام الا باجتناب العيوب بالكلية والتمسك بالفضائل في سائر الامور، وهذه الرتبة غاية تمام الانسانية ونهاية الفضيلة البشرية . وواجب على كل انسان الاجتهاد في بلوغها واستفراغ الوسع في الوصول اليها . لأن التمام مطلوب لذاته والنقص مكروه لعينه . وأحق الناس لطلب هذه الرتبة وأولاهم بالتجمل بها لبلوغ هذه المنزلة الملوك والرؤساء لأن الملوك والرؤساء أشرف الناس وأعظمهم قدراً وما أقبح بالشريف العظيم القدر أن يكون ناقصاً . فالملوك اذاً ينبغي أن يكونوا أشد الناس حرصاً على بلوغ الكمال . لأن الملك اذا كان تاماً جامعاً لمحاسن الأخلاق محيطاً بجميع المناقب الحسنة كان ملكا بالطبع . واذا كان ناقصاً كان ملكا بالقهر . وما أولى بالملك

ان يرغب في الرئاسة الحقيقية لا في التي تكون بالقهر والشرف الذاتي. فالواجب اذاً أن يصرف الملك همته في اكتساب الفضائل وانشاء المحاسن ويطلب الغاية من المكارم ويستصغر الكثير منها حتى يحوز جميعها ولا يرضى بالنهاية حتى يزيد عليها . فانه إن رضي برتبة فوقها رتبة لم يصر أبدا الى التمام، واذا طلب الكمال فأول ما يجب عليه أن يعتاده في نفسه هو عظم الهمة . فان عظم الهمة يشنع في عينيه كل رذيلة ويحسن له كل فضيلة. فاذا عظمت همته بذلك سلم من الاعجاب بملكه ورأى نفسه وهمته أعظم قدرا من أن يستكثر ذلك الملك. واذا احتقر الملك ملكه الذي به عزته وعظمته طلب لنفسه ما يعظمها بالحقيقة . وبناء على ذلك يرى بان النفس لا تعظم الا بالفضائل. ثم ينبغي له أيضاً ان يكره الملق ويبغض المتملقين وينهاهم عنه . وملاك الامر في ذلك جميعه ان يعرف عيوبه حتى يمكنه توقيها والتحرز منها . وهذا في الملوك صعب جدا . وذلك لان الانسان بالطبع يخفى عليه كثير من عيوبه مالم ينبهه عليها آخر ، والذي يخفى على الملوك هو اكثر . وسببه ان العوام والسوقة يبكتون على عيوبهم ويوبخون على ذنوبهم ويعيرون بنقائصهم فهم بالضرورة يعرفونها . وأما الملوك فلا يجسر أحد على تبكيتهم ولا يقدم أحد على نصحهم وذلك لان الناس أجمع يقصدون التقرب الى الملوك بالتملق فلا يقولون لهم الا ما يحبون لينالوا الحظ عندهم ، فعيوب الملوك أبداً خفية عنهم .

وينبغي للملك اذا أحب أن يتنزه عن العيوب و يتطهر من دنسها أن يتقدم الى خواصه وثقاته ومن كان يركن الى عقله وفطنته من خدمه وحاشيته ويأمرهم أن يتفقدوا عيوبه و نقائصه ويطلعوه عليها ويعلموه بها .

وينبغي أيضاً أن يتلقى من يهدي اليه شيئاً من عيوبه بالبشاشة والقبول ويظهر له الفرح والسرور ، بل المستحسن من الملك ان يجيز الذي أوقفه على عيوبه اكثر مما يجيز المادح على مدحه ويشكر من ينهيه على نقصه . فاذا لزم هذه الطريقة وعرف بها يسرع أصحابه وخواصه الى تنبيهه على عيوبه وايقاظه على مقابحه فيأنف حينئذ من الرذائل ويبتعد من النقائص، ويأخذ نفسه إذ ذاك بالتنزه من العيوب ويقهرها على التخلص من دنسها . فاذا فعل ذلك وتوفر على اقتناء الفضائل وألزم نفسه التخلق بالمحاسن ولم يرض من منقبة الا بغايتها ولم يقف عن فضيلة الا وطلب الزيادة عليها واجتهد في مايحسن سياسة نفسه عاجلا، ويبقي له الذكر الجميل آجلا، لم يلبث أن يبلغ الغاية من التمام، ويرتقي الى النهاية من الكمال، فيحوز السعادة الانسانية والرئاسة الحقانية ويبقى له حسن الثناء مؤبداً وجميل الذكر مخلداً .

فقد أتينا فيما سبق على صفة الانسان التام الجامع لمحاسن الاخلاق، والطريقة التي توصله الى الرتبة العليا وتحفظ عليه المنزلة الفضلى وقدمنا مايجب تقديمه من سياسة الاخلاق لطالبي هـذا الكتاب . فـ أولى

من نظر في تلك الأقوال وتصفحها. وفهم مضمونها وتدبرها ، وأخذ نفسه باستعمال ما تبين في فصوله وساق أخلاقه بالطرق الى ما فنن في أبوابه. واجتهد كل الاجتهاد في تكميل نفسه واستفرغ غاية الوسع في طلب التمام. وما أقبح النقص بالقادر على التمام، والعجز عن المقتدر على الكمال. والحمد لله على كل حال.

﴿ تم ﴾

انتهى الكتاب وحمد الله لا ينتهي — ويتلوه قصيدة للمرحوم الشيخ ناصيف اليازجي من المقامة السابعة عشرة الحكمية :

القصيدة الحكمية

اني لقد جربت اخلاق الورى … حتى عرفت ما بدا وما اختفى

كلٌّ يذمُّ الناس فالذي نجا … من ذمه يدخل في ذم الملا

والمرء مطبوع على البخل اذا … جاد بجوده عن العرض فدى

يريد أن يغترف البحر ولا … يترك منه قطرة تروي الظما

ينسى من المحسن طوداً قد رسا … ولم يكن ينسى ذرةً ممن أسا

ولا يحب غير نفسه فما … أحبه فهو الى النفس دنا

يعرف كلّ حاله فيما مضى … إلاّ الذي كان دنياً فارتقى

وكلّ علم يدرك المرء سوى … عرفان قدر نفسه كما اقتضى

بالعقل والدين له كل الرضى … اما بماله وجاهه فلا

وكلما عقل الفتى قلّ اكتفى … به كأنّه فسرّ وازدهى

قد طبع الناس على الظلم فما … سلم أمرؤ الامر الاّ بغى

يؤذي الجهول نفسه فان جنى … يوماً عليك لا يلام لأذى

ويأخذ التبيين لدهر ويرى … بعينه نوعاً لدى الباب استوى

ينعم البعض بمال يجتبي … وبعضهم يناله ما شتى

من عاش بالتقتير من ذوي الغنى … فانه أفقر من فوق الثرى

كل يعد نفسه نعم الفتى ... فمن هو اللئيم منا يا ترى

لو عرف الانسان عيبه لما ... رأيت عيباً فيه ما طال المدى

وكل عيب كان من طي الحشى ... في المرء يبدو فيه كبرا لنتنه

لا يشعر الجاهل بالجهل كما ... لا يشعر السكران الا ان صحا

لا يعرف الصحيح قيمة لما ... كان من الصحة حتى يبتلى

لا يحمد القوم الفتى الا متى ... مات فيعطى حقه تحت البلى

لو كان كل يعرف الحق سوى ... لكان كل الناس أهلا اقتدنا

من قال لا أغلط في أمر جرى ... فانها أول غلطة ترى

وقلما أبصر ذو نعمة على ... شخص ولا تقول ذو نعمة عنا

وقلما كان شجاعاً في الوغى ... الا عزيز النفس والجود كذا

وكل ما نال غير منواه ثوى ... يسمج في عين ويؤذي من رأى

وكل ما عن منهج الطبع التوى ... تنكره النفس ولو نفعاً جنى

وكل من تاه دلالاً وادعى ... مستكبراً فذلك ناقص الحجى

وكل من شاب على خلق فلا ... تنزحه فهو ليس من أهل الندى

وكل من لا خير منه يرتجى ... ان عاش أو مات على حد سوى

(من اللقمة الحكمية من مجمع البحرين للمرحوم الشيخ ناصيف اليازجي)